جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

"كان" في القرآن الكريم دراسة تركيبية دلالية

إعداد الطالب
أحمد عبد الله الصايل

إشراف
الدكتور عادل سلمان بقاعين

رســـالة مقدمة إلى عمـــادة الدراســـات العليـــا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغـــة والنحو / قسم اللغة العربية وآدابهـــا

جامعة مؤتة، 2012م

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تُعبر
بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب أحمد عبدالله الصايل الموسومة بـــ:

"كان" في القرآن الكريم دراسة تركيبية دلالية

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
د. عادل سلمان البقاعين		2012/03/14	مشرفاً ورئيسا
أ.د. عبدالقادر مرعي الخليل		2012/03/14	عضواً
د. سيف الدين طه الفقراء		2012/03/14	عضواً
د. طالب محمد الصرايرة		2012/03/14	عضواً

عميد الدراسات العليا
أ.د. عبدالفتاح خليفات

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤتة – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :99-03/2372380
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

أهدي هذا العمل العلمي إلى أناس كانت لهم بصمة واضحة في مسيرة حياتي العلمية.....

إلى أشخاص بذلوا ما استطاعوا من جهد وعمل من أجل إتمام مسيرة العلـــم والمعرفة......

أهدي هذه الدراسة إلى روح والدي رحمه الله...

و إلى والدتي التي تستحق منا كل بر وعون ....

إلى شريكة حياتي التي هي أحق الناس عليَّ بحسن المعاملة وطيـــب المــودة والرحمة....

إلى إخوتي الأحباء الذين يستحقون مني كل مودة وصحبة طيبة.....

إلى أصدقائي وزملائي الذين ما ادخروا جهداً في مساعدتي والوقوف إلى جانبي....

أحمد عبدالله الصايل

الشكر والتقدير

قبل كل شيء فإنني أشكر الله تعالى رب العرش العظيم الذي مكنني من إتمام هذه الرسالة على أكمل وجه، وبلغني هذا الفضل العظيم العميم من لدنه سبحانه وتعالى، فهو المستحق للشكر قبل كل مشكور، فالشكر له سبحانه وتعالى أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وبعد إتمام هذا العمل فلا يمكن أن يفوتني أن أشكر أستاذي الدكتور: عادل البقاعين على ما قام به من جهد وتوجيه، فله كل الشكر مني، ولا نستغني أبداً عن توجيهاته ونصائحه، فهو صاحب فضل كبير عليّ، فالشكر له على ما بذل وصرف من وقت من أجل توجيهي على أكمل الطرق.

ولا يفوتني أن أشكر الأساتذة الكرام أعضاء المناقشة، فنحن نستمد منهم المساعدة والعون، ولا شك أن ملحوظاتهم ستكون محط عنايتي، فجزاهم الله عني كل خير.

وأتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في هذه الدراسة، وساعدني وعاونني فيها، فهم بحق أصحاب فضل علي، فجزاهم الله خيراً.

أحمد عبدالله الصايل

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	هـ
الملخص باللغة الإنجليزية	و
المقدمة	1
الفصل الأول: خصوصية "كان"	4
1.1 لماذا عُدت "كان" أماً لباب الأفعال الناقصة	8
2.1 حذف النون من مضارع "كان"	10
3.1 دلالات "كان"	12
4.1 خصوصية التركيب	18
5.1 معنى التركيب	21
6.1 معنى الدلالة	22
7.1 "كان" بين مستويات التركيب اللغوي ومستويات التحليل اللغوي	24
الفصل الثاني: "كان" المسبوقة بـ "ما" في القرآن الكريم	27
1.2 "كان" المسبوقة بـ "ما" والمسندة إلى الاسم الظاهر	27
2.2 "ما كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المستترة	34
3.2 "ما كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المتصلة	40
4.2 ما يكون	50
5.2 ما يكونوا	55
الفصل الثالث: "كان" المسبوقة بـ "لو" في القرآن الكريم	59
1.3 "كان" المسبوقة بـ "لو" والمسندة إلى الاسم الظاهر	61
2.3 "لو كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المستترة	67

3.3 "لو كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المتصلة 72
الفصل الرابع: "كان" المسبوقة بـــ "إنْ" في القرآن الكريم 82
1.4 "إنْ كان" المسندة إلى الاسم الظاهر 83
2.4 "إن كان" المسندة إلى الضمير 92
3.4 "إنْ" الداخلة على "كان" في صيغة المضارعة 101
الخاتمة 108
المراجع 110

الملخص

"كان" في القرآن الكريم دراسة تركيبية دلالية

أحمد عبدالله الصايل

جامعة مؤتة، 2012م

تتناول هذه الدراسة الحديث عن الفعل الناقص "كان"، وذلك في كتاب الله تعـــالى، حيث تبين هذه الدراسة الخصوصية التي يختص بها هذا الفعل عما سواه من الأفعال الناقصة وحتى التامة، حيث نراه كثير الاستعمال في كلامنا وكتاباتنا.

ولقد قسِّمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول هي:

الفصل الأول: خصوصية "كان" وتحدثنا فيه عن خصوصية التركيب، وعن "كان" في مستويات التركيب اللغوي، ومستويات التحليل اللغوي، بالإضافة إلى بيان ســبب جعل "كان" أمّاً للأفعال الناقصة.

أما الفصل الثاني فتناولنا فيه الحديث عن "كان" المسبوقة بـــ "ما" في كتـــاب الله تعالى، ولقد طرحنا عدداً من الأمثلة التي تتناسب وطبيعة الإسناد لــــ "كـــان" فـــي نصوص الآيات المتعددة.

أما الفصل الثالث فلقد تناولنا فيه الحديث عن "كان" المسبوقة بـــ "لو" في كتـــاب الله تعالى، وما فعلناه في الفصل الثاني فعلناه أيضاً في هذا الفصل، من تقـــسيم لــــ "كان" حسب الحالة التركيبية لها، وحسب طبيعة الإسناد.

أما الفصل الرابع والأخير فيمثل الحديث عن "كان" المسبوقة بـــ "إنْ" في القـــرآن الكريم، وشواهد هذا الفصل أيضاً رُتبت حسب طبيعة الإسناد لـــ "كان".

ثم أتبعنا ذلك بخاتمة اشتملت على عدد لا بأس به من النتائج التي توصلنا إليها.

Abstract

"Kan" in the Koran - A Semantic synthetic study

Ahmahd Abdullah alsayil

Mutah University: 2012

This study examines the verb of "Kan" in the Koran, as it points out the peculiarity of the verb "Kan" if compared to other verbs, where we see a lot of use in our utterances and writings.

The study has been divided to four chapters:

Chapter I: the peculiarity of the verb "Kan" where we talked about the peculiarity of this Linguistic unit, the verb "Kan" in the levels of linguistic structure and levels of linguistic analysis, as well as about the cause behind considering the verb "was" The basis of all the verbs of the same classification "Al'Af'Aal Al-naqisah".

The second chapter examined the verb "Kan" precededby Bema" in the Koran, and I have put forward a number of examples that fit the nature of attribution in "Kan" in the texts of multiple verses.

The third chapter examines "Kan" preceded by "Lau" in the Koran, and what has been done in the second chapter is done also in this chapter; dividing "Kan" in accordance to the synthetic and attribution nature.

The fourth chapter represents the final chapter that examines the verb "Kan" preceded by "Inna" in the Koran, examples was also arranged according to the nature of attribution of "Kan".

A conclusion then is put forward where many results where mentioned.

المقدمة:

الحمد لله الذي منحنا من لدنه العلم والفهم، وجعلنا في مدارج المتعلمين، الــذي علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وآلــه الغــر الميامين، وأصحابه والتابعين واتابع التابعين، وبعد:

فلقد تنبه النحاة العرب القدماء إلى الخصوصية التي تختص بها "كان" عن سواها من أخواتها، وجعلوها متميزة عن سواها بأشياء عدة، كان من أبرزها أن جعلوها أماً لباب الأفعال الناسخة التي تعمل عملها، فسموا الباب باسمها، فقالوا: كان وأخواتها.

وعلاوة على ذلك فإن "كان" دون غيرها من أخواتها تستعمل كثيراً فــي كــلام العرب، هذا ما أثبته لنا النص القرآني حين كان حضور "كان" فيه أكثر من حضور غيرها من أخواتها، ومن هنا انطلقنا في دراستنا هذه، وحاولنا الكشف عن أســرار هذا الفعل الذي يحمل خصوصية دون غيره من الأفعال الناقصة منها والتامة.

لقد اخترنا ميداناً لدراستنا وهو القرآن الكريم، وهذا الاختيار لم يكن عبثاً، بل كان من أجل أسباب كثيرة دفعتنا إلى جعله مصدراً لمادة هذه الدراسة، كان من أبرز تلك الأسباب أن القرآن الكريم يمثل نصاً من نصوص اللغة التي يُحتج بها، إضافة إلــى أن النص القرآني لا يتطرق إليه الخطأ، ولا يقربه الزلل، وهو يمثل الشكل اللغــوي الذي ثبتت عليه اللغة حين نزوله، وبالتالي فإن استقاء مادة هذه الدراسة كان نابعــاً من نص لغوي يمثل اللغة عموماً.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تفسّر لنا عدداً من الأمور التي تتعلق بالفعــل الناقص "كان" في لغتنا العربية، خصوصاً أن مادة هذه الدراسة تنبــع مــن القــرآن الكريم، وبالتالي فإن عملية الخطأ والزلل في النص القرآني منتفية تماماً.

وتهدف هذه الدراسة إلى بيان خصوصية الفعل "كان" دون سواه مــن الأفعــال الناقصة، والذي نرى أنه كثير الاستعمال في كلامنا سواء المكتوب أو المنطوق، كما تهدف إلى بيان أهم الأدوات اللغوية التي تدخل على الجملة الاسمية المصدرة بـــ "كان".

وبناء على ما سبق فلقد بحثنا في الأشكال التركيبية التي أتت عليها "كان" فــي كتاب الله تعالى، فوجدنا كثيراً منها قد سبقت بأدوات معينة، لذا قررنا جعــل هــذه

الأشكال التركيبية عناوين للفصول التي سنبحثها في دراستنا هذه، فكانت الفصول على النحو الآتي:

الفصل الأول: خصوصية "كان":

ولقد تناولنا في هذا الفصل الحديث عن "كان" كعنصر تركيبي يمتاز عن غيره من عناصر التركيب، والأفعال الناسخة خصوصاً، فـ "كان" تخرج عن مدلولاتها حسب طبيعة الجملة التي تدخلها، ولقد أوردنا عدداً لا بأس به من أنواع "كان" التي ذكرها ابن المؤدب في كتابه.

الفصل الثاني: كان المسبوقة بـ "ما" في القرآن الكريم:

ويتناول هذا الفصل الشواهد القرآنية التي احتوت "كان" المسبوقة بـ "ما"، سواء أكانت "كان" ماضية أم مضارعة، ولقد تناولنا من الأمثلة ما ينطبق على حالات الإسناد المتعددة.

الفصل الثالث: كان المسبوقة بـ "لو" في القرآن الكريم:

ويتناول هذا الفصل أيضاً الشواهد القرآنية التي تحتوي "كان" وقد سبقت بـ "لو"، سواء أكانت "كان" ماضية أم مضارعة، إضافة إلى حالات الإسناد المختلفة.

الفصل الرابع: كان المسبوقة بـ "إن" في القرآن الكريم:

ويتناول هذا الفصل الشواهد القرآنية التي تحتوي "كان" المسبوقة بـ "إنْ"، وبيان تلك الشواهد، موزعة حسب الحالة الإسنادية لـ "كان".

ثم أتبعنا ذلك كله بخاتمة ذكرنا فيها عدداً من النتائج التي توصلنا إليها في هذه الدراسة، ثم أوردنا ثبتاً للمصادر والمراجع التي عدنا إليها.

وفي دراسة كهذه يُفترض بنا أن ننتهج المنهج الوصفي للوصول إلى النتائج، فالمنهج الوصفي يقوم في أساسه على عملية البحث العلمي، ويبين لنا طريقة الوصول إلى التقعيد، وذلك من خلال الاستقراء وحشد الظواهر، ثم وضع الفرضيات، وبعد ذلك الوصول إلى القواعد.

أما بالنسبة لأهم المصادر التي اعتمدناها في هذه الدراسة فيمكننا القول إن كتب التفاسير وأعاريب القرآن كانت أهم تلك المصادر، خصوصاً ما كان منها يتعرض

للقضايا اللغوية المتنوعة، ككتاب: إعراب القرآن الكريم وبيانه، للشيخ محيي الـــدين عبد الحميد، ومن قبله كتاب: جامع البيان للطبري.

والبحث العلمي لا بد أن تواجهه عدداً من المشكلات التي تقف حائلاً أمام ســير عمله العلمي وفقاً للطريق التي يرسمها هو له، ولكن هذه المشكلات تمثل العنــصر الموازي للنتائج التي يتوصل إليها الباحث، فكلما بذل الباحث جهداً أكبر في البحــث والتنقيب، حصل على نتائج أكثر في الحقل العلمي الذي يبحث فيه.

وأخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله منا بقبول حسن، إنه السميع العليم.

الفصل الأول

خصوصية "كان"

تتناول هذه الدراسة بالبحث والاستقصاء والتحليل فعلاً من أكثر الأفعال في اللغة العربية خصوصية، وهو الفعل "كان"، هذا الفعل يمتاز عن غيره من الأفعال بأمور كثيرة، مما يدفع القارئ بشكل عام، والباحث في اللغة بشكل خاص إلى أن يتوقف عنده، وأن يتأمل فيه محاولاً الكشف عن بعض أسراره، فهذا الفعل حقاً حريّ بالدراسة، ولائق بالبحث والتنقيب عن الأمور التي تميزه عن غيره من الأفعال.

يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يفكر للوهلة الأولى بهذا الفعل السؤال عن كثير من الأمور اللافتة للنظر، ومن بين هذه الأمور مثلاً:

لماذا هذا الفعل دون غيره من الأفعال كثير الورود في نصوصنا اللغوية المكتوبة، ونصوصنا اللغوية المنطوقة في حياتنا العامة؟

لماذا عُدَّ هذا الفعل ناقصاً؟

ما سبب جعل هذا الفعل دون غيره من الأفعال الناقصة أماً لباب تلك الأفعال الناقصة؟

كل هذه الأسئلة وغيرها أيضاً تتبادر إلى ذهن اللغوي والمتلقي بشكل عام حين يفكر ملياً بهذا الفعل المتميز في لغتنا العربية.

لقد أشار العلماء قديماً وحديثاً إلى خصوصية "كان" من حيث إنها ناقصة، فذكروا أن سبب نقصانها أنها لا يتم المعنى بها إلا بمجيء الخبر المنصوب مع الاسم المرفوع ــ مرفوع "كان" ــ وبهذه الحالة يتم معناها، في حين أن الأفعال التامة يتم معناها بمجرد مجيء المرفوع، ولا يشترط مجيء المنصوب، يقول الزمخشري: "ونقصانهن من حيث أن نحو ضرب وقتل كلام متى أخذ مرفوعه، وهؤلاء ما لم يأخذن المنصوب مع المرفوع لم يكن كلاماً[1].

---

[1]. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (1993م). المفصل في صنعة الإعراب، تحقيق: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ص: 349.

ومن خلال هذا السبب الذي ذكره الزمخشري في كتابه يتضح لنا أن تعليله أتى من خارج "كان" وليس من داخلها نفسها، فهو أرجع سبب نقصان مثل هذه الأفعال إلى احتياجها للمنصوب بعد المرفوع، وهكذا فإنه لم يأتِ بسبب مباشر متعلق تعلقاً رئيساً بـ"كان" ذاتها.

أما العكبري فيرى أن من الأسباب التي جعلت "كان" ناقصة دلالتها على الزمان دون الحدث، في حين أن الأصل فيها أن تكون دالة على الحدث والزمان معاً، فتكون بالتالي بمعنى "حدث"، أي أنها تامة في هذه الحالة[1].

وهذا السبب الذي ذكرناه آنفاً يعود إلى "كان" بشكل مباشر، في عكس السبب السابق له والذي ذكره الزمخشري، فلقد كان ذلك السبب من خارج إطار "كان"، ويأخذ بدلالة الجملة بشكل عام، وهذا السبب أيضاً يدفعنا إلى النظر بخصوصية هذا الفعل، فهو بدلالته هذه على شيء دون آخر أخذ حالة من الخصوصية عن غيره، وهو نعته بالناقص، والنقصان عكس التمام، فنقصان "كان" يدل على عدم استيفائها للأمور الواجب وجودها في الفعل كي يكون فعلاً تاماً.

إن هذين السببين يعدان أهم الأسباب التي جعلت من النحاة ينعتون "كان" بالنقص، فهي من جهة لا تدل على شيئين كما يدل الفعل التام، ومن جهة أخرى تحتاج إلى مرفوع ومنصوب بعدها كي يتم معناها، في حين أن غيرها من الأفعال إذا أخذت مرفوعها كان فيها معنى، أما "كان" إذا أخذت مرفوعها فحسب فلا يمكن أن يكون فيها معنى.

إن هذه السمات التي تتسم بها "كان" دون غيرها من الأفعال جعلت منها ذات خصوصية عن غيرها، صحيح أن هناك من الأفعال ما يشترك معها في هذه الخصوصية غير أن "كان" أكثر تميزاً في هذه الخصوصية من غيرها، وبالتالي فإنها

---

[1]. انظر: العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (1992م). مسائل خلافية في النحو، تحقيق: محمد خير الحلواني، مطبعة الشرق العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ص: 70، و ابن الصائغ، محمد بن حسن بن سباع الجذامي (2004م). اللمحة في شرح الملحة، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ـ السعودية، الطبعة الأولى ج: 2، ص: 575.

أحرى بالدراسة من غيرها، وأولى بالبحث من سواها من الأفعال الناقصة، فكل الأفعال الناقصة إنما أدخلها النحاة تحت باب "كان"، إذ نرى في كتب النحو ذكراً لباب "كان" وأخواتها، ولا نجد مثلاً "أصبح" وأخواتها، مما يدل على تميز "كان" في هذا الباب عن سواها من الأفعال.

ومن خصوصية "كان" أنها لا تدوم على نسق واحد في الدلالة، ولا تبقى على نظام معين في التصنيف الصرفي لها، فهي ليست ناقصة دائماً، بل تأتي في بعض الأحيان تامة، ولقد جاءت تامة في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومجيء "كان" تامة إنما يكون حسب الدلالة التي يقتضيها سياق الكلام، ولا يمكننا أن نقول إنها تامة إلا حسب ما تعطيه إيانا من معنى.

وتأتي "كان" تامة إذا كان معناها "حدث، أو حصل"، ففي هذه الحالة لا تعود "كان" فعلاً ناقصاً، أي بعبارة أخرى ينتفي السببان اللذان كانا فيها كي تكون ناقصة، فتكون لها دلالة على الحدث مع دلالة الزمن، بالإضافة إلى انتفاء افتقارها إلى المنصوب بعد مرفوعها كي يتم المعنى، فتكتفي "كان" في هذه الحالة بالمرفوع بعدها لتمام المعنى[1].

ومن خلال هذه الميزة يمكننا أن نلمح بشكل خفي خصوصية من خصوصيات "كان" في لغتنا العربية، فهي مرة تدل على النقصان، وأخرى تدل على التمام، هذا يعني اختلاف الدلالة بناء على اختلاف نوع "كان" بين التمام والنقصان، ولقد وردت "كان" ناقصة في أغلب المواضع في كتاب الله تعالى، غير أن ذلك لا ينفي مجيئها تامة في بعض المواضع، منها قوله تعالى: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[2].

حيث إن "كان" الواردة في هذه الآية الكريمة تامة وليست ناقصة، فهي بمعنى "حدث" أو "حصل"، وبالتالي فإنها تكتفي بالمرفوع بعدها لتمام معناها، والآية تختص بأمر الله تعالى حين خلق آدم من تراب ثم أمره بأن يكون فكان، ولقد جاء الله تعالى

---

[1]. انظر: الغلاييني، مصطفى محمد (1993م). جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت ــ لبنان، الطبعة الثامنة والعشرون ج: 2، ص: 276.

[2]. سورة آل عمران، آية: 59.

بهذه الآية لبيان أن أمر آدم عنده ليس بأهون من أمر عيسى، حيث خلق عيسى بغير فحل، وكذلك فإن خلق آدم كان من غير أب ولا أم، فهذا أعجب من ذاك[1].

ونحن حين ننظر في الآية القرآنية الكريمة نجد أن جواب الطلب وقع بفعل مضارع وهو "يكون" في حين أن الطلب كله قد دخل عليه الفعل "قال" وهو فعل ماضٍ، وبالتالي فإن من الممكن أن يكون الكلام في غير القرآن: ثم قال له كن فكان، على أساس أن الفعل قد انتهى، وليس ثمة أداة تحول المعنى وتقلبه من المضارع إلى الماضي.

ذكر الأخفش في معانيه أن هذه الآية تعني أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام بأن يكون، فإذا هو كائن[2]، وذكر كلمة "كائن" عند الأخفش تبين لنا أنه يفكر في مسألة المضارع، فجاء باسم الفاعل على أساس أنه يشبه الفعل المضارع، أو قل العكس، أي أن الفعل المضارع يشبه اسم الفاعل في الحركات والسكنات، ومن هنا أوّل الأخفش هذا الفعل باسم الفاعل.

والأمر على ما نرى أنه خاص بـ "كان" فالواقع يقول إنَّ الأولى أن نقول: كن فكان، لكن الآية القرآنية جاءت بـ "يكون"، فربما كان الأمر ناجماً عن طبيعة هذه العبارة، أي أن العبارة بذاتها "كن فيكون" وليست مجزأة إلى فعلين كما نرى، أي أن الله تعالى قال: "كن فيكون"، وليس أن الله تعالى قال: "كن" فـ "يكون"، وبالتالي فإن العبارة كلها شكلت المعنى، وليس الفعل الأول شكل معنى، والفعل الثاني شكل معنى بذاته، وبذلك تتضح لنا صورة المخالفة بين الأزمان، إضافة إلى أن الله تعالى ليس مقيداً بالأزمنة كما هو حالنا، فما كان ماضياً عندنا قد يكون مضارعاً أو أمراً عند الله، إذ لا قيمة للزمان عنده، وقد يجعل الماضي بدلالة المضارع، وقد يجعل المضارع بدلالة الماضي، إلى غير ذلك من الدلالات.

---

[1]. انظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (2000م). جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ج: 6، ص: 468.

[2]. انظر: الأخفش، أبو الحسن المجاشعي (1990م). معاني القرآن، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 221.

وهكذا نرى مجيء "كان" في كتاب الله تعالى بالنقص والتمام، مما يؤثر ذلك فـــي المعاني المرتبطة بهذا الفعل المخصوص، إضافة إلى تأثيره المؤكد فـــي التركيـــب للكلام.

1.1 لماذا عُدَّت "كان" أماً لباب الأفعال الناقصة؟

يتبادر إلى كل ذهن مدقق في العربية، وممحص في تركيباتها وأفعالها وأنظمتهـــا الكلامية بعض الأسئلة التي تتعلق بطبيعة وضع علمائنا الأفذاذ لأبواب النحو أو حتى غيره من أقسام اللغة المختلفة، فلقد وضعوا بعض الأبواب تحت اسم من مـــسميات ذلك الباب، فقالوا مثلاً: "كان وأخواتها"، ولم يقولوا أياً من أخوات "كان" للدلالة على هذه الأفعال، وإنما ذكروا "كان" فقط، ولم نجد أحداً غير هذه التسمية فقـــال مـــثلاً: "صار وأخواتها"، أو "ليس وأخواتها"، بل بقي الجميع مذعنين لهذه التسمية، وأصـــبح يطلق على "كان" في بعض كتب النحو بـــ "أم الباب"، أي أنها صاحبة السبق فيه.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا باحثين في خصوصية هذا الفعل هو: لماذا جُعِلت "كان" أماً لهذا الباب؟ ولماذا سُمي باب الأفعال الناقصة بـــ "كان"؟

صحيح أن مثل هذا السؤال يدخلنا في جدلية اللغة، ومما قد لا نتحصل على فائدة عظيمة من وراء هذا السؤال، حيث إن أغلب ما سيأتي في هذا المجال اجتهـــادات، وليس ثمة حد فاصل في هذه المسألة، إلا أن البحث فيها يقودنا بشكل طبيعـــي إلـــى الحديث عن خصوصية "كان" في هذه الفكرة، فلو لم يكن لها خصوصية ما، ما كانت أماً لهذا الباب.

أما الأمور التي تختص بها "كان" عن غيرها من الأفعال الناقـــصة فتتمثـــل فـــي إمكانية حذفها وحدها، وبقاء اسمها وخبرها، مثل قولك: أما أنت منطلقـــاً انطلقـــت، ومن الأمور أيضاً التي تختص بها "كان" عن غيرها جواز حذفها مع اسمها وبقـــاء خبرها فقط، مثل قوله صلى الله عليه وسلم:

"التمس ولو خاتماً من حديد"[1]، فالمعنى: التمس ولو كان الملتمسُ خاتماً من حديــد، ومن الأمور التي اختصت بها أيضاً أن يأتي مــضارعها محــذوف النــون، ولهــا شروط، ومثال ذلك قوله تعالى: "ولم أكُ بغياً"[2]، فهذه هي أهم الأمور التي اختــصت بها "كان" دون سواها من الأفعال الناقصة، مما جعلها تنعت بأم هذا الباب[3].

ولكن علينا قبل أن نجزم بأمية هذا الباب لكان قبل أن ننظر في أمور أخرى غير التي نظر إليها علماؤنا القدماء، فبالإضافة إلى ما ذُكر من قبل من أمور جعلت مــن "كان" أماً لهذا الباب فإننا نشير إلى أمر لم نعثر أن أحداً أشار إليه، وهذا الأمر يتعلق بالاستعمال اللغوي اليومي لهذه الأفعال الناقصة، حيث إننا نرى بوضوح أن "كــان" دون غيرها من الأفعال الناقصة كثيرة الاستعمال في حياتنا اليومية، وهــي أيــضاً كثيرة الورود في النصوص اللغوية المكتوبة، سواء ماكان منها قرآنــاً أو شــعراً أو نثراً، فلقد وردت "كان" مثلاً في كتاب الله تعالى حوالي "1500" مرة، وهذا رقم ليس بالقليل إذا ما قورن بغيرها من الأفعال الناقصة، عداك عن الأفعال التامــة، فــنحن نظن أنه لم يرد فعل في القرآن الكريم بهذا العدد من المرات غير "كان" يستوي فــي ذلك الأفعال الناقصة، والأفعال التامة.

ولما كانت "كان" أكثر استعمالاً من غيرها من الأفعــال، وكــان ورودهــا فــي النصوص اللغوية أكثر من سواها من الأفعال صار من الواجب تمييز "كــان" عــن غيرها بسمة تليق بها، وتليق بمكانها الواسع في اللغة، ومن هنا سُميت بأم الباب في الأفعال الناقصة نتيجة للأسباب التي ذكرها النحاة واللغويون من قبل، بالإضافة إلى الشيوع الاستعمالي لهذا الفعل في لغتنا العربية.

---

[1]. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله (1422هـ). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمــور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم: محمــد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ج: 6، ص: 192، و مسلم، أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري (د.ت). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التــراث العربــي، بيــروت ـــ لبنــان ج: 2، ص: 1040.

[2]. سورة مريم، آية: 20.

[3]. انظر: الجوجري. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ج: 1، ص: 365 ـــ 371.

2.1 حذف النون من مضارع كان:

ومن الأمور التي تختص بها "كان" عن غيرها من الأفعال الناقصة، وحتى التامة فيما نعلم، أنها تحذف نونها في المضارع وفقاً لشروط، وهذه خصوصية لــ "كــان" دون غيرها، وبناء على هذه الخصوصية فقد جعلها النحاة سبباً من الأسباب التي جعلت "كان" أماً لباب الأفعال الناقصة كما ذكرنا من قبل.

وتحذف النون من مضارع كان إذا سبقت بجازم، من مثل: لم أكُ، فالأصل في هذا الفعل أن يكون على النحو الآتي:

يكونُ.

ثم دخل عليه حرف الجزم "لم"، فصار الفعل:

لم يكونْ.

فكان الجزم بالسكون الظاهر على النون، ولما سكنت النون التقى ساكنان، الواو والنون، فوجب أن نتخلص من هذين الساكنين، فحُذفت الواو؛ لأنها الأضعف، ولأن النون تمثل حرف الإعراب، فصارت الكلمة:

لم أكنْ.

ثم من أجل التخفيف في النطق حُذفت النون أيضاً، فصار الفعل:

لم أكُ[1].

ولقد وردت "كان" محذوفة النون من مضارعها في كتاب الله عز وجل في عدد من المواضع، نذكر منها على سبيل المثال:

قوله تعالى على لسان مريم: " قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا"[2].

فكما هو واضح لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة فإن "كان" المضارعة حُذفت النون منها، وهي مسندة إلى المتكلم المفرد، وكما ذكرنا من قبل فإن هذا الحذف يأتي للتخفيف، وحين نحاول البحث عن الخفة في هذه الآية مثلاً نجد أنها لو لم

---

[1]. انظر: حسن، عباس (د.ت). النحو الوافي، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة ، ج: 1، ص: 588.

[2]. سورة مريم، آية: 20.

تحذف النون من مضارع "كان" لوجب قلبها ميماً لمجيء الباء بعدها، وهو في مجال القرآن الكريم، وبالتالي فإن الأمر يكون صعباً، ومن هنا حُذفت النون.

ومن المواضع التي حُذفت فيها النون من مضارع "كان" وكانت فيه مسندة إلى الغائب المفرد المذكر قوله تعالى: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[1].

وكما نرى أيضاً أن "كان" المضارعة قد تُليت بحرف الميم، وهو من حروف الإدغام، فلو بقيت النون لوجب إدغامها في الميم من بعدها، وهو أمر يشكل صعوبة في النطق، وثقلاً في اللفظ، فمن هنا حُذفت النون من مضارع "كان" طلباً للخفة.

ومن المواضع التي حُذفت فيها نون "كان" المضارعة في القرآن الكريم، والمسندة إلى جماعة المتكلمين، قوله تعالى: " قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ"[2].

وواضح لنا أيضاً أنه لو بقيت النون الساكنة في هذا الفعل لتشكل عندنا الثقل الناتج عن إدغام النون الساكنة بالميم بعدها، ولكن مع حذف نون "كان" كان الأمر أسهل وأيسر في النطق.

ومن المواضع أيضاً التي جاءت فيها "كان" مسندة إلى المخاطب المذكر قوله تعالى: " فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ"[3].

والكلام عليها شبيه بالكلام على ما سبقها من الآيات الكريمة، ونلحظ أن نون المضارع في "كان" تُحذف بغض النظر عن المسند إليه، فهي تحذف في حال أن يكون المسند إليه مذكراً أو مؤنثاً غائباً أو مخاطباً، مفرداً أو جمعاً، ففي هذه الحالات كلها يمكننا حذف نون "كان" المضارعة بغض النظر عن المسند إليه، والسبب كما ذكر القدماء والنحويون بشكل عام طلب التخفيف.

---

[1]. سورة النحل، آية: 120.

[2]. سورة المدثر، آية: 43.

[3]. سورة هود، آية: 17.

3.1 دلالات "كان":

ومن خصوصية هذا الفعل في لغتنا العربية أنه ذو دلالات متعددة، حيث إن هذا الفعل لا يقف عند دلالة واحدة فحسب، بل له كثير من الدلالات التي يمكننا أن نستقيها من خلال التراكيب المختلفة، والتي يمكننا أن نلحظها من خلال السياقات المتعددة التي ترد فيها "كان"، وبناء على تلك الدلالات يمكننا الوصول إلى المعنى المراد من ذلك التركيب، والهدف المخصوص من ذلك السياق، ونحن في هذا الجزء من هذا الفصل سنتحدث عن أبرز تلك الدلالات التي تتماز بها "كان" عن غيرها من الأفعال، مما يرسم لها خصوصية معينة، ويصبغها بصبغة خاصة بها دون سائر الأفعال الناقصة الأخرى، أو حتى الأفعال التامة.

إن أول تلك المعاني والدلالات التي تأتي "كان" بها ما يتمثل بأن تكون "كان" دالة على الزمن الماضي الراهن، ونعني به بقاء الفعل على حالة واحدة وإقامته عليها[1]، وذلك مثل قوله سبحانه وتعالى: "وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ قَدِيراً"[2].

فهو في الماضي كان قديراً، وفي الحاضر قدير أيضاً لم يتغير عما كان عليه، وهو في الغد قدير أيضاً لن يتغير[3].

يمكننا أن نرى من خلال هذه الآية الكريمة أن الأمر متعلق بالله جل وعلا، فلا يمكننا أن نصف الله سبحانه بالقدرة في زمان دون زمان، فالله سبحانه يتصف بالقدرة المطلقة في كل زمان، وفي كل مكان، ومن هنا فلا يمكننا أن نعد "كان" في هذه الآية الكريمة للدلالة على الزمن الماضي فحسب، بل من الأولى بنا أن نجعل دلالة "كان" على شمولية الزمان، كي يتحقق بهذه الدلالة صفة العلم الشمولي لله عز وجل، ولقد رأينا أن ابن المؤدب قد وصف هذه الحالة لـ "كان" بالدلالة على الزمن الراهن، أي أن "كان" لا تدل على زمن دون غيره من الأزمان، بل هي تدل على الحالات الزمنية الثلاث التي نعرفها.

---

[1]. انظر: ابن المؤدب، القاسم بن محمد بن سعيد(1987م). دقائق التصريف، تحقيق: أحمد ناجي القيسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ـــ العراق ص: 19.

[2]. سورة الأحزاب، آية: 27.

[3]. انظر: ابن المؤدب. دقائق التصريف. ص: 19.

ولقد ذكر المفسرون تفسيراً لهذه الآية الكريمة متوافقاً مع السياق الذي وردت فيه، فذكروا أن الله تعالى متصف بالقدرة حيث إنه أورث المؤمنين دار الكافرين، وانتصر من الكافرين، فهذه الأمور كلها هي التي تدخل في إطار قدرة الله سبحانه وتعالى، وهو قادر على أن يعطي المؤمنين كل هذا[1].

يظهر لنا من خلال هذا الكلام أن المقصود بالزمن الماضي في "كان" في مثل هذه الآية السياق السابق لها، وأن صفة القدرة لا تدخل في إطار الزمن الماضي الذي تتحدث عنه الآية الكريمة.

وذكر الماوردي أن قوله تعالى: "وكان الله على كل شيء قديراً" "فيه وجهان: أحدهما: على ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قديرٌ ، قاله ابن اسحاق. الثاني: على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى ، قدير ، قاله النقاش"[2].

وبهذا الكلام أيضاً فإننا لا نجد الإشارة الواضحة إلى دور "كان" في صياغة الدلالة، وإنما نجد أن المفسرين ينظرون إلى سياق الآية ككل، ويجعلون منه فيصلاً في تبيين الدلالة.

ونرى من خلال الآية الكريمة أن "كان" قد أثرت في سياقها، مما جعل المفسرين يتأولون حالات ودلالات متعددة لهذه الآية الكريمة، غير أن أغلب المفسرين لم يتطرق إلى الحديث عن "كان" نفسها وتأثيرها في الدلالة، بل كان حديثهم عن طبيعة السياق ككل، ومحاولة تفسير الآية الكريمة بناء على الحادثة التي تتحدث عنها الآيات، ومن هنا فقد بيّنوا دلالة "كان" بشكل غير مباشر في الآية الكريمة.

ومن دلالات "كان" في تراكيبها المختلفة أن تكون ملغاة، أي لا وجود لها في التركيب، ولا مكان لها في المعنى، وهذا من دلالات "كان" التي ذكرها ابن المؤدب في دقائقه، نقلاً عن ابن قتيبة، فالآية الكريمة السابقة بناء على هذا الكلام يكون معناها: والله على كلِّ شيء قدير، ومثله قوله تعالى: "كيفَ نُكلِّمُ مَنْ كانَ في المهدِ

[1]. انظر: الطبري. جامع البيان، ج: 19، ص: 83.

[2]. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (د.ت). النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ج: 4، ص: 393.

صَبِيًّا"[1]، فالمعنى المراد في هذه الآية الكريمة هو: كيف نكلم من هو صبي في المهد، أما "كان" فهي ملغاة، ولا مكان لها في المعنى[2].

ولكن ابن المؤدب نفسه يورد كلاماً لابن الأنباري يرد فيه على ابن قتيبة فيما ذهب إليه من رأي، فابن الأنباري يرى أنه لا يمكن أن تعد "كان" ملغاة؛ لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كلام الله تعالى، فكيف بنا نلغي فعل "الكون" بأكمله، فهذا لا يمكن[3].

وابن الأنباري هنا لا يورد هذا الاحتجاج دون حجة يعتمد عليها، ولقد كانت حجته في هذه المسألة تعتمد اعتماداً كلياً على التركيب، فهو يرى أنه لا يمكن أن نعد "كان" في مثل الآيتين السابقتين ملغاة، وهما قد وقعتا في كتاب الله تعالى أولاً، ثم إنهما قد عملا فيما جاء بعدهما، فالأولى عملت في القدير، والثانية عملت في "صبي"، وكلتاهما عملتا النصب، فكيف يمكننا أن نلغي "كان" في مثل هذا التركيب دون بيان للعامل الذي أحدث النصب في الكلمتين السابقتين؟ وهي حجة تركيبية كما نرى بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى الحجة الأخرى التي تعتمد في أساسها على انتفاء إلغاء أي حرف من كلام الله تعالى، فما بالنا نلغي فعلاً بأكمله[4].

وبنظرة متمعنة لما قد سبق من دلالة "كان" على الإلغاء من الكلام يمكننا أن نقول: إن ابن قتيبة اعتمد على الدلالة فيما ذهب إليه، فهو حينما نظر في دلالة الآيتين الكريمتين رأى أنه يمكننا أن نفهم المعنى المراد من الآية الكريمة دون الحاجة لـ "كان"، أو قل بعبارة أخرى يمكننا أن نتوصل إلى الفائدة في ظل عدم وجود "كان"، فلما كان الأمر على ذلك فيمكننا أن نعدَّ "كان" ملغاة من السياق بأكمله، وهي حجة تعتمد في أصلها على المعنى كما نرى، وترتكز في أساسها على الدلالة.

أما ابن الأنباري فكان رده على ابن قتيبة ينطلق من ناحيتين: الأولى: تتمثل في النظرة الشرعية لكلام الله تعالى، فهو يرى أنه لا يمكننا أن نعد شيئاً من كلام الله

---

[1]. سورة مريم، آية: 29.

[2]. ابن المؤدب. دقائق التصريف، ص: 19.

[3]. انظر: المرجع نفسه، ص: 19.

[4]. انظر: المرجع نفسه، ص: 19.

ملغى بحال من الأحوال، ومن هنا فإنه لا يمكننا أن نلغي "كان" أو أي حرف من كلامه سبحانه وتعالى، والثانية: تتمثل في نظرته السطحية للتركيب، فهو حينما رأى أن "كان" قد عملت فيما بعدها، عدها موجودة، ولا يمكن إلغاؤها ما دامت عاملة، وبالتالي فإنه لا يرى الرأي الذي يراه ابن قتيبة، بل يعده رأياً مردوداً، ولا يرى له وجها في نظره هو.

ويذكر ابن المؤدب من دلالات "كان" أيضاً تعليقاً على الآية القرآنية الكريمة: "كيفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ في المَهْدِ صَبِيًّ"[1]، فيذكر أن فيها ثلاثة أقوال:

الأول: أن تكون "كان" بمعنى صار، وهذا المعنى عنده قبيح، ومرد قبحه أن العرب لا تقول: كان عبدُ الله عالماً، وهم يريدون: صار عبدُ اللهِ عالماً، فلما لم تكن العرب تقول ذلك قبح عنده هذه الدلالة[2].

ومن خلال ما ذكرناه آنفاً يتبين لنا أن حجةَ قبحِ أن تأتي "كان" بمعنى صار عند ابن المؤدب راجع إلى طبيعة الاستعمال اللغوي عند العرب، فلقد قاس ابن المؤدب أمر دلالة "كان" على معنى "صار" في استعمال العرب، فوجد أن العرب لا تأتي بـ "كان" للدلالة على معنى صار، وبالتالي حكم على هذه الدلالة المرتبطة بـ "كان" بالقبح.

أما القول الثاني: فيتمثل بأن "كان" في الآية الكريمة ذات دلالة متمثلة بـ "حدث"، فهي بمعنى "حدث"، ومعنى الآية على هذا الوجه: كيف نكلم صبياً حدث، وابن المؤدب أيضاً في هذا القول يجعله قبيحاً، ومرد القبح أن "كان" إذا كانت بمعنى "حدث" فإنها لا تقع على غيرها، وذلك مثل قولنا: كان الشتاءُ، وكان البردُ[3].

ونحن لم نفهم قصد المؤلف من قوله إنها لا تقع على غيرها إذا كانت "كان" بمعنى "حدث"، غير أننا نرجح أنه يقصد أنها لا تنصب بعدها شيئاً، فهي في هذه الحالة تكون تامة، ومن ناحية أخرى فإننا نرى أن حجة ابن المؤدب في تضعيف

---

[1]. سورة مريم، آية: 29.

[2]. انظر: ابن المؤدب. دقائق التصريف، ص: 19.

[3]. المرجع نفسه ، ص: 19.

هذا القول تعتمد في أساسها على التركيب، فهو يرى أن التركيب فيصلٌ في ذلك؛ لأن "كان" لو كانت بمعنى "حدث" لما وقعت على غيرها.

أما القول الثالث فهو القول المعتمد عند كثير من العلماء، والرأي المرجح عند أغلبهم، وهم له مختارون: ويتمثل هذا القول بأن تكون "كان" في الآية الكريمة بمعنى الجزاء، فهي في هذه الحالة بمعنى "يكون"، وتلخيص الآية على ذلك: من يكون في المهد صبياً فنكلمه[1]؟

إن حديث ابن المؤدب السابق عن الآية الكريمة أورد فيه عدداً لا بأس به من الدلالات التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعالى، فذكر لنا معنى: صار، ومعنى حدث، ومعنى الجزاء، كل هذه المعاني ذكرها لنا من خلال حديثه عن الآية الكريمة.

ومن دلالات "كان" أيضاً أن تأتي بمعنى المستقبل بلفظ الماضي، فتكون دالة على معنى يكون، وهي بلفظ "كان"، وهي دلالة كما نرى على الزمن[2]، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: "تَعْرُجُ الملاِكَةُ والروحُ إليهِ في يومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِيْنَ ألفَ سنةٍ"[3].

والمعنى المراد من هذه الآية القرآنية الكريمة يتمثل في دلالة "كان" على الاستقبال، إذ لا يعقل أن يكون يوم القيامة قد تم، وبالتالي أن تكون "كان" دالة على الماضي، بل الواقع يقول إن يوم القيامة لم يقع بعد، وبالتالي فإن دلالة "كان" على الماضي غير ممكنة، والأصل فينا أن نؤولها بما يتناسب مع السياق القرآني، والواقع الذي تتحدث عنه الآيات، ومن هنا فإن "كان" تدل على الاستقبال، أي أنها بمعنى "يكون" كما ذكر صاحب الجمل من قبل، وهي دلالة داخلة في إطار دلالة "كان" نفسها، وإن التغيير الذي حصل يتمثل فقط بتغير الدلالة على الزمن.

وثمة دلالة أخرى يذكرها المفسرون لـ "كان" وهي أن تأتي "كان" بمعنى "ليس"، أي أن تدل على النفي، وهي دلالة وردت في حديث بعض المفسرين عن قوله

---

1. ابن المؤدب. دقائق التصريف، ص: 20.

2. انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن (1995م). الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة الخامسة ص: 144.

3. سورة المعارج، آية: 4.

تعالى: " وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"[1].

فيذكر الطبري كلاماً نقلاً عن أبي جعفر يمكننا من خلاله أن نستشف الدلالة على النفي لـ "يكون" المذكورة في الآية الكريمة، حيث يقول: " قال أبو جعفر: وأما تأويل الكلام، فإنه: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين"، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهًا لك يا رب وتعظيمًا أن أفعل ذلك أو أتكلم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق"، يقول: ليس لي أن أقول ذلك، لأني عبد مخلوق، وأمي أمَةٌ لك، وكيف يكون للعبد والأمة ادّعاء ربوبية؟"[2].

فيظهر لنا من خلال كلام الطبري أن "كان" في هذه الآية الكريمة دالة على النفي، وهي بمعنى "ليس"، وبالتالي فإنها تحمل دلالة تختلف عن غيرها من الدلالات التي تأخذها "كان" في النصوص اللغوية المختلفة.

ومن دلالات "كان" أيضاً أن تأتي بمعنى لا ينبغي أو لا يجوز، وهو ما نراه أيضاً في الآية السابقة، فلقد فسر بعض المفسرين معنى "ما يكون" بأنها بمعنى لا ينبغي أو لا يجوز، أي أنه لا ينبغي لي يا رب أن أدعي أنني إله أنا وأمي، يقول السمرقندي مبيناً هذه الدلالة المنوطة بالآية القرآنية الكريمة: " مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ يقول: ما ينبغي وما يجوز لى أَنْ أَقُولَ مَا ليس لى بحق. يعني: ليس بعدل أن يعبدوا غيرك إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ يعني: إن قلت لهم ذلك القول فَقَدْ عَلِمْتَهُ فإنك تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي يعني: ما كان مني في الدنيا وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ يعني: ولا أطلع على غيبك وما كان منك"[3].

فمن خلال الآية الكريمة نجد أن جعل "ما يكون" بمعنى ما ينبغي، أو ما يجوز أمر يفيد المعنى، ولا يخل بالقصد، وبالتالي فإن هذا التأويل يتناسب مع معنى الآية القرآنية الكريمة، ويتوافق مع طبيعة السياق القرآني الذي يقوله الله سبحانه وتعالى

1. سورة المائدة، آية: 116.

2. الطبري. جامع البيان، ج: 11، ص: 237.

3. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد (د.ت). بحر العلوم ج: 1، ص: 431.

على لسان سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ ونحن سوف نتكلم عن هذه الآية الكريمة في موضع لاحق من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

هذه الدلالات التي ذكرناها من أهم الدلالات التي تأتي بها "كان"، وهي كما رأينا تمتاز عن كثير من الأفعال في العربية بأنها ذات دلالات متعددة، وأن تلك الدلالات الداخلة في إطارها تتنوع حسب التركيب، وحسب المعنى المنوط بها، وبالتالي فإن هذا الفعل ذو خصوصية دلالية تختلف عن غيره من الأفعال، فلا نكاد نجد فعلاً في لغتنا العربية تختلف دلالته كل هذا الاختلاف، وتتنوع معانيه كل هذا التنوع، بحيث يحتمل المعنى غير وجه في بعض الأحيان، وتحتمل الدلالة غير توجيه في أحيان أخرى.

إذن يمكننا القول إن "كان" ذات خصوصية دلالية تميزها عن غيرها من الأفعال في اللغة العربية، هذه الخصوصية تتمثل في تعدد الدلالات المرتبطة بهذا الفعل، وتعدد الدلالات هذا يتبعه تعدد أيضاً في المعاني، وهذا التعدد لا يكون في إطار مجموعة من النصوص، بل هو تعدد داخل في نص واحد، كآية قرآنية، أو عبارة شعرية، من مثل الآية الكريمة: "كيفَ نُكَلِّمُ من كان في المهدِ صبياً"[1]،فلقد رأينا كيف أن ابن المؤدب ذكر لهذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من المعنى المرتبطة بهذه الآية، وبالتالي فإن هذا التعدد يصبغ "كان" بصبغة الخصوصية المميزة لها عن غيرها من باقي الأفعال في العربية.

4.1 **خصوصية التركيب:**

وفي هذا الجزء نستطيع أن نرى أن "كان" حين تدخل على الجمل المختلفة تأخذ حالة من الخصوصية في تركيبها، فهي تدخل وتحدث عملاً، ولا يكون دخولها دون عمل، ومن هنا فإن "كان" تختلف عن سائر الأفعال في أنها حين تأتي في الكلام لا تأتي بناء على جملة منفردة بذاتها، بل تأتي بناء على جملة أولى تتمثل بجملة

---

[1]. سورة مريم، آية: 29.

الأساس، وهي جملة اسمية، ثم تنتقل هذه الجملة الاسمية إلى حالة أخـــرى بـــدخول "كان" عليها.

ويتحدث ابن جني في اللمع عن عمل "كان" وأخواتها، فيقول: "فَهَذِهِ الْأَفْعَال كلهَــا تدخل على الْمُبْتَدَأ وَالْخَبَر فَترفع الْمُبْتَدَأ وَيصير اسْمهَا وتنصب الْخَبَر وَيصير خَبَرهَا وَاسْمهَا مشبه بالفاعل وخبرها مشبه بالمفعول تَقول كَانَ زيد قَائِما وَصَارَ محمدٌ كَاتبا وَأصْبح الأميرُ مَسْرُورا وظل جعفر جَالِسا وَبَات أَخُوك لاهيا ووَمَا دَامَ سعيدٌ كَرِيمًا وَمَا زَالَ أَبوك عَاقِلا وَمَا انْفَكَّ قاسمُ مُقيما وَمَا فتئ عمرُو جَــاهِلا وَلَــيْسَ الرجــلُ حَاضرا وَكَذَلِكَ مَا تصرف مِنْهَا تَقول يكون أَخُوك مُنْطَلقًا وليصبَحَنَّ الحديثُ شَائِعاً"[1].

إن حديث ابن جني السابق منصب على بيان الحالة التركيبية التي تـــأتي عليهـــا "كان" وأخواتها في الكلام، فتركيبها متمثل في أنها تدخل على المبتدأ والخبر، فترفع الأول ــ وهو المبتدأ ــ تشبيهاً له بالفاعل، ويسمى اسمها، وتنصب الثاني ــ وهــو الخبر ــ تشبيهاً له بالمفعول، ويسمى خبرها[2].

---

[1]. ابن جني، أبو الفتح عثمان (د.ت). اللمع في العربية، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت ص: 36.

[2]. انظر: ابن هشام. أوضح المسالك، ج: 1، ص: 226، و ابن هشام، أبو محمد عبــد الله بــن يوسف بن أحمد (1383هــ). شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ــ مصر، الطبعة الحادية عشرة ص: 127، و ابن عقيل، عبد الله بــن عبــد الرحمن الهمداني المصري (1980م). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيــق: محمــد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، ودار مصر للطباعــة، القــاهرة ــ مــصر، الطبعــة العشرون ج: 1، ص: 261، و الأشموني، أبو الحسن علي بن محمد بن عيــسى (1998م). شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 219، و السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (د.ت). همع الهوامع فــي شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة ــ مــصر ج: 1، ص: 408، و الصبان، أبو العرفان محمد بن علي (1997م). حاشية الصبان علــى شــرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولــى ج: 1، ص: 331 ــ 332.

ومن خلال ما ذكرنا من طبيعة التركيب في "كان" بشكل خاص، وفــي أخواتهــا بشكل عام يتبين لنا أن التركيب الذي يحتوي "كان" ذو خصوصية متمثلة بما يلي:

أولاً: يمكننا أن نعد "كان" في تركيبها داخلة على التركيب، وليست جزءاً أصــلياً منه، وهو ما كان يومئ به العلماء والباحثون في حديثهم عن "كان" وطبيعة عملهــا، وذلك حين عبروا عن عمل "كان" بأنها تدخل على الجملة الاسمية، أي بعبارة أخرى أن "كان" ليست أصلاً جزءاً من الجملة الاسمية، بل هي عنصر خارجي داخل على الجملة الاسمية.

ثانياً: إن دخول "كان" على الجملة الاسمية لا يقتصر فقط على دخولهــا فحــسب دون إحداث أثر في تلك الجملة، بل هو ذو أثر كبير متمثــل فــي تغييــر الحالــة الإعرابية للخبر، ونقله من حالة الرفع التي كان عليها، إلى حالة النــصب التــي آل إليها.

ثالثاً: إن التأثير في الجملة الاسمية وتغيير حركات الإعراب فيها جاء بناء علــى أن "كان" وأخواتها أفعال، والفعل لا بد له من عمل، ولما كانت هذه أفعالاً عملت في الجملة التي دخلت عليها، وتمثل عملها في أن نصبت الخبر، ونحن نتحفظ على قول من قال بأنها رفعت المبتدأ وسمي اسمها، وذلك لأن المبتدأ مرفــوع فــي الأصــل، فكيف رفعته؟

رابعاً: تنقل "كان" زمن الجملة حسب طبيعة دخولها التركيبي، فهي قد تدل علــى الماضي، وقد تدل على المستقبل أو الحاضر، وهو أمر يمكننا القول إنــه لــم يُــتَح لسائر الأفعال في لغتنا العربية، فهذه الطبيعة التي خُصَّت بها "كان" ليست متاحة في غيرها من الأفعال، وهو ما يصبغ "كان" بصبغة الخصوصية التركيبية دون ســواها من الأفعال بشكل عام.

وبناء على ما تقدم، فإنه يتضح لنا الخصوصية التركيبية لــ "كان"، ويتضح لنا أن هذا التركيب أثّر في المعنى، ولم يقتصر فقط على الحركة والحالة الإعرابية، الأمر الذي يجعل من دراسة "كان" دراسة منفصلة في نص من نصوص الاحتجاج أمــراً مطلوباً، لبيان أثر هذه التنوعات والخصوصيات التي تمتاز بها كان فــي صــياغة المعاني والدلالات.

5.1 معنى التركيب:

ولقد ذكر العلماء القدماء بعضاً عن معنى التركيب، فهو عندهم يعني: " ما أُريد بجزء لفظه الدلالة على جزء معناه، وهي خمسة: مركب إسنادي نحو: قام زيدٌ، ومركب إضافي كغلام زيدٍ، ومركب تعدادي كخمسة عشر، ومركب مزجي كبعلبك، ومركب صوتي كسيبويه"[1].

ومن خلال هذا التعريف عند علمائنا العرب القدماء يتبين لنا أنهم كانوا ينظرون للتركيب على أنه تلازم بين كلمتين أو أكثر، في حين أن العلم اللغوي الحديث ينظر للتركيب على أنه مجموعة العلاقات الإسنادية إذا ما حاولنا أن نبسط التعريف إلى أكبر قدر ممكن.

هذا يعني أن نظرة القدماء إلى التركيب كانت تشمل التركيب بأنواعه القديمة عندهم، إضافة إلى ما نتحدث عنه في عصرنا الحديث، فالتركيب الإسنادي عندهم هو إلى حد ما يمثل التركيب بمفهومه الحديث.

وبناء على بيان معنى التركيب فإننا نسجل عليه الملحوظات الآتية:

أولاً: يمثل التركيب الناحية البنائية للكلام، وهو في مجمله يأخذ الشكل السطحي للكلام، وبالتالي فإنه وصف لطبيعة تكوين الجملة، وهو ما تجري عليه أغلب القواعد في اللغة العربية، أو قل بشيء من التعميم ما تجري عليه أغلب الأوصاف لقواعد اللغات بشكل عام.

ثانياً: يأخذ التركيب في مجمله نواحي القوالب، فهو آخذ بالشكل، وبناء على ذلك فهو معتمد في أساسه على قالب معين في صياغة الجمل والكلام.

---

[1]. الجرجاني، علي بن محمد. كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت ــ لبنان، 1985 م، ص: 223، وانظر: ابن الحاجب، عثمان بن عمر. الكافية في النحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، بيروت ــ لبنان، ط: 4، 1949 م، ص: 384، الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن. شرح شافية ابن الحاجب، مع شرح الشواهد لعبد القادر البغدادي، ت: محمد نور الحسن وزملائه، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، 1975 م، ص: 152 ــ 153، و الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن. شرح الكافية في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان(د.ت)، ص: 59 ــ 60.

هذه السمات بشكل عام نستطيع أن نلحظها في التركيب، ونستطيع أن نجعلها فرقاً كبيراً، وبوناً شاسعاً بينه وبين الدلالة.

6.1 معنى الدلالة:

يَحْسنُ بنا أن نقوم بتعريف للدلالة على أساس أن دراستنا تبحث في هذا الموضوع أيضاً، فنحن ندرس "كان" دراسة تركيبية دلالية، فالتركيب كما رأينا من قبل يشتمل على الناحية البنائية للكلام، وهو سطحي، بالإضافة إلى أنه قد يكون مقولباً في بعض الأحيان.

ونحن في عمومنا نفهم معنى الدلالة إذ نطلق الحديث عنها، ولكننا قد لا نصل إلى التعريف الدقيق للدلالة، غير أن الدلالة تتلخص في أغلب نواحيها في المعنى، فنحن حين نطلق كلمة "دلالة" هذا يعني ارتباط المصطلح بمعنى الكلام، ومضمون الجملة.

ويذكر الكفوي كلاماً جميلاً عن الدلالة حيث يقول: " وَالدّلَالَة تَتَضَمَّن الِاطِّلَاع، وَلِهَذَا عوملت مُعَاملَته حَتَّى تتعدى ب (على) ، وَلم تعامل فِي الْهِدَايَة الَّتِي بمعناها بذلك، بل عوملت مَعهَا مُعَاملَة سَائِر مضامينها.

وَفرق بَين الدّلَالَة والاستعمال تَقول: هَذَا اللَّفْظ يدل على الْعُمُوم، ثمَّ قد يسْتَعْمل حَيْثُ لَا يُرَاد الْعُمُوم، بل يُرَاد الْخُصُوص.

وَمَا كَانَ للْإِنْسَان اخْتِيَار فِي معنى الدّلَالَة فَهُوَ بِفَتْح الدَّال، وَمَا لم يكن لَهُ اخْتِيَار فِي ذَلِك فبكسرها، مِثَاله إِذا قلت: (دلَالَة الْخَيْر لزيد) فَهُوَ بِالْفَتْح، أَي: لَهُ اخْتِيَار فِي الدّلَالَة على الْخَيْر، وَإِذا كسرتها فَمَعْنَاه حِينَئِذٍ صَار الْخَيْر سجية لزيد فيصدر مِنْهُ كَيفَ مَا كَانَ"[1].

---

[1]. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى (د.ت). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان ص: 439.

ولقد أشار بعض العلماء إلى أن معنى الدلالة يتمثل في أنها تتعلق باللفظ إذا أطلق دل، أي أن المتلقي إذا سمع ذلك اللفظ فإنه يفهم المقصود منه، وهذا معنى قولهم: لفظ إذا أُطلِق دل[1].

ومن خلال ما أوردناه عن الدلالة فيما سبق يمكننا أن نلحظ أن الأساس المعتمد في تبيين معنى الدلالة يتعلق بالفهم، والوصول إلى الفكرة المرادة، أو المعنى المقصود من خلال اللفظ، وبعبارة أخرى فإن الدلالة تتمثل في إمكانية فهم المتلقي للكلمات التي يتلقاها، هذا المعنى هو جزء من طبيعة فهم الإنسان للكلام والعبارات المختلفة، وبالتالي فإن الدلالة ذات ارتباط وثيق بين المسمى والاسم، فإذا كانت صورة المسمى ماثلة في ذهن المتلقي أمكنه الربط بينها وبين الاسم الذي يسمعه، ومن خلال ذلك يمكنه الوصول إلى الدلالة المقصودة.

إذن من خلال ما قدمناه من حديث عن التركيب والدلالة فإنه يمكن لنا أن نلحظ أن التركيب والدلالة أمران متلازمان في اللغة، فلا يمكن الفصل بينهما، إذ إن التركيب يمثل الجانب السطحي البسيط في الكلام، أما الدلالة فتمثل الجانب العميق الداخلي في بنية الكلام.

وإمكانية التوصل إلى الدلالة تعتمد بشكل مباشر وكبير على قدرة المتلقي على الربط الذهني بين الأسماء ومسمياتها في اللغة بشكل عام، وقدرته أيضاً على الربط بين الكلمات والعبارات والجمل ذهنياً كي يصل في النهاية إلى تكوين الدلالة المطلوب تكوينها في ذهنه، وهذا الأمر يدخل في عملية التلقي والفهم واستيعاب الكلام.

وهذه الأمور كلها التي تتعلق بالتركيب والدلالة تدخل في نهاية المطاف بإمكانية الفرد وقدرته على التواصل في بيئته اللغوية المخصوصة، وبالتالي فإن الدلالة بشكل خاص تدخل في علم لغة التواصل، وعلم الاتصال، فهي عنصر من عناصر تحفيز الفرد على التواصل مع أفراد بيئته اللغوية.

---

[1]. انظر: الرصاع، أبو عبد الله محمد بن قاسم (1350هـ). الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، شرح حدود ابن عرفة للرصاع، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ص: 445.

7.1 "كان" بين مستويات التركيب اللغوي، ومستويات التحليل اللغوي:

سنتحدث في هذا الجزء من الدراسة عن مستويات التركيب اللغوي في "كـــان"، والتي تعني طبيعة القاعدة، وكيف تأتي القاعدة في أصلها، ومن ثـم نتحـدث عـن مستويات التحليل اللغوي، والتي تختص بما قدمه العلماء من تحليلات حول أصـل تلك القاعدة، وطبيعة التفسيرات التي قيلت حول بناء قاعدة التركيب المعين، مما قـد يدخلنا بشكل مباشر في التعليلات النحوية المختلفة.

ونحن نعلم أن أصل القاعدة يتمثل في أن "كان" تدخل علـى الجملـة الاسـمية، فتنصب الخبر، ويسمى خبرها، كما تبقي المبتدأ مرفوعاً ويسمى اسمها، ومـن هنـا فإن هذه القاعدة تمثل الأساس الذي ننطلق منه في حديثنا عن طبيعة التركيـب مـع "كان" الناقصة، ولقد ذكر بعض النحاة تعليلات لهذه القاعدة نذكر منها ما قاله ابـن الوراق في علله، حيث يقول: " إِن قَالَ قَائِل: لم وَجب لهَذِهِ الْأَفْعَال أَن ترفع الْأَسْمَاء وتنصب الْأَخْبَار، ولَيْسَت بِأَفْعَال مُؤثرَة، وَإِنَّمَا يخبر عَنهُ بهَا عَمَّا مضى، ويخبر عَمَّا يسْتَقْبل، ولَا يخبر أَنه قد وَقع فعل على مفعول، نَحْو قَوْلك: كَانَ زيد قَائِما؟
فَالْجَوَاب فِي ذَلِك: أَن هَذِه الْأَفْعَال لما كَانَت عبارَة عَن الْجمل، وَجب من حَيْثُ كَانَت أفعالا أَن يجْرِي حكم مَا بعْدهَا كحكمه بعد الْأَفْعَال، ولَو أبطلنا عَملهَا لحصل بعْـدهَا اسمان مرفوعان من غير عطف ولَا تَثْنِيَة، وَهَذَا لَا يُوجد لَـهُ نَظِيـر فِـي الْأَفْعَـال الْحَقِيقِيَّة، فَوَجَبَ أَن ترفع أحد الاسمين، ليَكُون الْمَرْفُوع كالفاعل، وتنـصب الثَّـانِي ليَكُون كالمفعول، فَلهَذَا وَجب أَن ترفع الْأَسْمَاء وتنصب الْأَخْبَار.
وَالدَّلِيل على أَنَّهَا أَفعَال وجود التَّصَرُّف فِيهَا، واتصال الضَّمِير بهَا الَّذِي لَا يتَّصل إِلَّا بالأفعال، كَقَوْلِك: كَانَ يكون فَهُوَ كَائِن ومكون، كَمَا تَقول: ضَـرب يَـضْرب فَهُـوَ ضَارب، وتَقول: كنت، كَمَا تَقول: ضربت"[1].

نرى من خلال هذا النص أن ابن الوراق قد أوجد تحليلاً وتعليلاً لمجيء "كان" أو إحدى أخواتها رافعة للمبتدأ وناصبة للخبر، فكيف تنصب هذه الأفعال الخبر وهـي ليس فيها معنى المفعولية والفاعلية، ولم يقع فعل من فاعل على مفعول، فبين تعليلـه

---

[1]. ابن الوراق، أبو الحسن محمد بن عبد الله بن العباس (1999م). علل النحو، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض ــ السعودية، الطبعة الأولى ص: 245.

تركيبياً، وذكر أنه لو لم تنصب هذه الأفعال خبراً لجاء بعدها مرفوعان دون عطــف أو بدل أو غيرهما، فكيف يأتي مرفوعان دون مسوغ لغوي تركيبي وقــد ســبقهما فعل؟

ومن هذا المنطلق انطلق ابن الوراق في تعليله لنصب "كان" الخبر، فالتعليل عنده ينحو منحى التركيب بعيداً عن الدلالة التي يخضع لها التركيب الذي يحتوي "كــان" الناقصة، ومن هنا فإن هذا التحليل اللغوي جاء لبيان طبيعة عمل "كان".

وفي موضع آخر يذكر ابن الوراق تعليلاً آخر لبعض أحوال "كان"، وذلك حــين تحدث عن أن "كان" تدل على شيء واحد فحسب، وهو الزمان، فلمــاذا لــم تُجعَــل أسماءً؟

ثم بيّن ابن الوراق ما حصل مع "كان" ولماذا جُعِلَت هي وأخواتها أفعالاً، حيــث يقول: " فَإِن قيل: أَلَيْسَ (كَانَ وَأَخَوَاتهَا) تدل على الزَّمَان فَقَط، فَهَلا جعلــت اسْــما، لدلالتها على معنى مُفْرد، كدلالة (يَوْم ولَيْلَة) وَمَا أشبههما؟
قيل: إِنَّهَا وَإِن كَانَت تدل على الزَّمَان فَقَط، فقد صرفت تصريف الْأَفْعَال، وَمَعَ ذَلــك فالغرض فِي ذكرهَا الْعبارَة عَن الْمعَانِي الَّتِي تقع فِي خبر المبتدإ، فَــصَارَت كَأَنَّهَــا دَالَّة على ذَلِك الْمَعْنى وَالزَّمَان جَمِيعًا. أَلا ترى أَنَّك إِذا قلت: كَانَ زيد قَائِما، دللت ب (كَانَ) على قيام فِي زمَان مَاض، فَلذَلِك وَجب أَن تجْعَل أفعالا"[1].

فكما نرى من خلال النص السابق فإن ابن الوراق اعتمد في تعليله الــذي ذهــب إليه على نواحي المعنى أو الدلالة، فلقد جعل من "كان" تدل على الحــدث المــرتبط بالخبر، ومن هنا وصلت "كان" إلى مرحلة الفعلية، ووجب علينا أن نعدها فعلاً، ولا نعدها اسماً.

ومن ناحية أخرى فإن الأصل في ترتيب الجملة التي تدخلها "كان" أو حتى إحدى أخواتها أن تكون على نحو ما يلي: كان الناقصة أو أي فعل نــاقص، ثــم اســمها المرفوع، ثم خبرها المنصوب، غير أن هذا الترتيب القائم في أصل التركيب اللغوي ليس ملزماً دائماً، بل قد يختلف، وهذا الاختلاف يأتيه من عناصر التقديم والتــأخير، وهو ما يدخلنا في نواحي التحليل اللغوي.

---

[1]. ابن الوراق. علل النحو، ص: 141.

يقول ابن جني: " وَيجوز تَقْدِيم أَخْبَار كَانَ وَأَخَوَاتهَا على أسمائها وَعَلَيْهَا أَنْفسهَا تَقول كَانَ قَائِما زيد وَقَائِمًا كَانَ زيدُ وَكَذَلِكَ لَيْسَ قَائِما زيد وَقَائِمًا لَيْسَ زيد"[1].

وقد يأتي معمول الخبر متقدماً على اسم "كان"، في حين يبقى الخبر في مكانه، وورد مثل هذا التركيب في كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: "ولكنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ"[2]، وقد يأتي معمول الخبر متقدماً على "كان" واسمها وخبرها أيضاً، ومن ذلك قوله تعالى: "وأَنْفُسَهُمْ كانوا يَظْلِمونَ"[3].

وأخيراً فإننا قد تناولنا في هذا الفصل كثيراً من الأمور الجديرة بالذكر عن "كان"، ولقد بيّنا الحالة الخصوصية التي تأتي عليها "كان" دون غيرها من أخواتها، الأمر الذي دفعنا لدراستها في هذه الدراسة، ولقد رأينا أن نقسم الفصول حسب الشكل التركيبي لـ "كان"، وحسب أكثر تركيباتها وروداً في كتاب الله تعالى، فلقد رأينا أن "كان" تأتي في كتاب الله تعالى كثيراً مسبوقة بـ "ما" تارة، ومسبوقة بـ "لو" تارة أخرى، ومسبوقة بـ "إنْ" مرة ثالثة، وهو الأمر الذي يبين لنا الهيئة التركيبية العامة التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا فقد قسمنا الفصول على هذا الأساس التركيبي، فجعلنا الفصل الثاني لـ "كان" المسبوقة بـ "ما"، وجعلنا الفصل الثالث لـ "كان" المسبوقة بـ "لو" في القرآن الكريم، وجعلنا الفصل الرابع والأخير لـ "كان" المسبوقة بـ "إنْ" في كتاب الله تعالى، وفيما يلي سنتحدث في كل فصل عن بعض الآيات التي وردت بهذا التركيب، محاولين الربط بين تلك التراكيب ودلالاتها المختلفة التي تجيء بها، بالإضافة إلى بيان أثر "كان" في المعاني التي ترد عليها، والله من وراء هذا القصد.

---

[1]. ابن جني. اللمع في العربية، ص: 37، وانظر: ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل (د.ت). الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ج: 1، ص: 90، وابن عقيل. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج: 1، ص: 290.

[2]. سورة البقرة، آية: 57.

[3]. سورة الأعراف، آية: 177.

الفصل الثاني

"كان" المسبوقة بـــ "ما" في القرآن الكريم

يتناول هذا الفصل بالبحث والتحليل النوع التركيبي الأول الذي ارتأينا أن نقسمه لــ "كان" في كتاب الله تعالى، وهذا النوع كما نرى متمثل من عنوان الفصل ذاتــه، ففي هذا الفصل سوف نقوم بمناقشة تركيب من أكثر تراكيب "كان" وروداً في كتاب الله تعالى، وهذا التركيب يتمثل في مجيء "كان" مسبوقة بـــ "مـــا" فـــي كتـــاب الله تعالى، وهذه الحالة التركيبية تشمل أن تكون "ما" نافية غير مختــصة، أو أن تكــون "ما" المشبهة بـــ ليس"، أو أن تكون "مـــا" المــصدرية، أو حتـــى أن تكــون "مـــا" الاستفهامية، فربما ترد أنواع "ما" كلها أو بعضها في هـــذا الفــصل، وفيمـــا يلـــي سنتحدث عن مجموعة من الآيات الكريمة التي احتوت هذا التركيب، وسنفصل فيــه القول بإذن الله تعالى من ناحيتين: الأولى: الناحية التركيبية والتي تتمثل كما نـــرى بمجيء "كان" مسبوقة بـــ "ما"، هذا للوهلة الأولى، أما الناحية الثانية فتتمثل بالناحية الدلالية، وتختص ببيان أثر "كان" في تركيبها هذا في المعنى، وسنقسم عناوين هـــذا الفصل حسب الطبيعة التركيبية لــ "كان" في جملتها.

1.2 "كان" المسبوقة بـــ "ما" والمسندة إلى الاسم الظاهر:

واضح لنا من خلال هذا العنوان الفرعي أن "كان" في هذا التركيب ستأتي علـــى هذا النحو:

ما + كان + اسم ظاهر.

فنحن في هذا الجزء لن نتحدث مثلاً عن مجيء "كان" مسندة إلى الضمير ســـواء أكان الضمير للغائب أو للمخاطب أو للمتكلم، فهذه سيكون لها تفصيلها فيما بعد فـــي هذا الفصل، وسيقتصر حديثنا على النوع المبين أعلاه.

وأول موضع نستفتح فيه هذا الفصل هو قوله تعالى: " مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[1].

واضح لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة الموضع المخصوص بالدرس في هذا الجزء من الدراسة، وهو قوله سبحانه وتعالى: "ما كان إبراهيمُ يهودياً"، فكما نــرى فإن التركيب جاء على هذا النحو:

ما + كان + إبراهيمُ.

فلقد أسندت "كان" إلى المفرد المذكر، وهو اسم ظاهر، وهي كلمة "إبراهيم".

أما المعنى المراد من هذه الآية الكريمة فيذكر الطبري أن الله تعالى كذّب بهــذه الآية الدعوى الباطلة من اليهود والنصارى من أن إبراهيم كان على ملتهم، وإثباتــه سبحانه وتعالى الإسلام لإبراهيم، وإكرام هذه الأمة بتبعيتها الشرعية في الملة والدين لإبراهيم عليه السلام، ولم يكن نفي القرآن ليهودية إبراهيم ونصرانيته كمــا زعــم اليهود والنصارى فحسب؛ بل كان نفي القرآن أيضاً لأن يكون إبراهيم مشركاً، فهذا لم يكن منه بالطبع[2].

أما الزجاج فقد بين لنا معنى الحنفية في اللغة، وهو إقبال صدور كل من القدمين، يقول الزجاج: " معنى الحنف في اللغة إقبال صُدُور القَدميْن كل واحدة على أختهــا إقبالاً يكون خلقةً لا رجوع فيه أبداً، فمعنى الحنيفية في الإسلام الميل إليه والإقامــة على ذلك العقد"[3].

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة دحضاً من الله سبحانه وتعالى لادعــاء النــصارى واليهود بأن إبراهيم كان منهم، فلقد كان يدعي النصارى أن إبراهيم كان منهم، وأن الأنبياء كانوا جميعاً منهم، فنزلت هذه الآية الكريمة وأبطلت دعواهم الملفقة، ولقــد

---

1. سورة آل عمران، آية: 67.

2. الطبري. جامع البيان، ج: 6، ص: 493.

3. الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (1988م). معاني القرآن وإعرابــه، عــالم الكتــب، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 427.

كان اليهود يقولون للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنهم أولى بإبراهيم منه، وأنهم على ملة إبراهيم، فنزلت هذه الآية[1].

"والحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى الدين المستقيم، وقيل: الحنيف الذي يوحد ويحج ويضحي ويختن ويستقبل الكعبة، وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله عز وجل"[2].

ويمكننا أن نرى من خلال الآية الكريمة أن "كان" قد سُبقت بـ "ما"، وهي هنا نافية، وهي في لغة تجري مجرى الأفعال، بمعنى أنه يكون لها عمل فيما بعدها، وهي ما الحجازية التي تعمل عمل "ليس"، وإنما أعملها الحجازيّون لأنهم رأوا فيها معنى "ليس"، وإما أن تكون غير عاملة، أي أنها تجري مجرى الحروف التي لا تعمل فيما بعدها[3].

إذن فإن "ما" النافية أثرت في معنى الجملة بشكل واضح، فلقد دخلت على "كان" ومن هنا جعلت "كان" وما هو واقع في حيزها منفياً، وبالتالي فإن المعنى كله يكون منفياً، أما الحدث الذي دخله النفي في هذه الآية الكريمة فهو حدث الكينونة بشكل عام، وبالتالي فإن كون إبراهيم نصرانياً أو يهودياً منتفٍ عنه انتفاءً تاماً، دلنا على

---

[1]. انظر: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (1419هـ). تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ج: 2، ص: 673، و الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (2000م). الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد ابن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 3، ص: 88، والماوردي. تفسير النكت والعيون، ج: 1، ص: 399 ــ 400.

[2]. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد (1420هـ). معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 453.

[3]. انظر: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (د.ت). المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت ــ لبنان ج: 4، ص: 188، و المرادي، أبو محمد الحسن بن قاسم بن عبد الله (1992م). الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ص: 398.

ذلك العموم الذي تفيده "كان"، ثم الإثبات لإبراهيم بالحنفية المسلمة عن طريق الاستدراك بـ "لكن" أبعد كل الشكوك التي قد تبدو في ذهن المتلقي حول ملة إبراهيم.

وما دام الأمر متعلقاً بالنفي، فلماذا لم تأتِ الآية على نحو: لم يكنْ إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً؟

صحيح أن النفي حاصل على فعل الكينونة في هذه الحالة، غير أن الدلالة تختلف، فدلالة نفي "كان" في حال أن تكون ماضية تختلف اختلافاً كبيراً عن دلالتها في حال أن تكون مضارعة، فنحن في حال المضارعة ننفيها بـ "لم"، وهي حرف قلب ونفي، ونعني بالقلب أي أنها تقلب زمن الفعل من الحال أو الاستقبال إلى الزمن الماضي، وبالتالي فإن نفي المضارعة يكون نفياً للحال أو الاستقبال، أما نفي الماضية فهو نفي للماضي.

وما نراه فرقاً بين هذه وتلك بشكل رئيس يتمثل في أننا نقول: لم يكن محمدٌ صديقي، في حال أن يكون محمد موجوداً حاضراً حياً، ونقول: ما كان محمد صديقي، في حال غياب محمد، أو موته، ألا ترى أن الله تعالى قال: "لَمْ يَكُنِ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ"[1]، ولم يقل: ما كان، وذلك ـ على ما نظن ـ لأن أهل الكتاب والمشركين باقون وليسوا غائبين أبداً من الحياة.

ويقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من كتابه العزيز: "مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ"[2].

إن هذه الآية الكريمة كما نرى تحتوي على مثالين من تراكيب "كان" المسبوقة بـ "ما"، والتي نحن في صدد دراستها في هذا الجزء من الفصل، والموضعان هما قوله سبحانه: "ما كان الله ليَذر المؤمنين"، وقوله سبحانه: "وما كان اللهُ لِيُطلِعكم على الغيب"، فهذان الموضعان يمثلان الحالة التركيبية التي نقصد إليها في هذا الجزء،

---

[1]. سورة البينة، آية: 1.

[2]. سورة آل عمران، آية:179.

حيث سُبقت "كان" بـ "ما"، ونلحظ أن كلا الموضعين جاء فيه خبر "كان" فعلاً مضارعاً، واتصلت بالفعل لام الجحود.

ولام الجحود تسبق الفعل المضارع فتنصبه بـ"أن" مضمرة، ولا يجوز إظهار "أن" معها، وهذا هو الفرق بينها وبين "كي" حيث إن "كي" يجوز إظهار "أن" بعدها، في حين أن ذلك غير جائز مع لام الجحود، ويجب أن تسبق لام الجحود بمعنى الجحود، كقولنا: ما كان، ولم يكن، وليس، يقول صاحب اللامات في لام الجحود: "لام الجحود سبيلها في نصب الأفعال بعدها بإضمار أن سبيل لام كي عند البصريين إلا أن الفرق بينهما هو أن لام الجحود لا يجوز إظهار أن بعدها كقولك: ما كان زيد ليخرج تقديره لأن يخرج وإظهار أن غير جائز ويجوز إظهار أن بعد لام كي كقولك: جئتك لتحسن إلي ولو أظهرت أن فقلت جئتك لأن تحسن إلي كان ذلك جائزا ولا يجوز في لام الجحود، وكذلك لا يجوز إظهار أن بعد الفاء والواو وأو وكي وحتى إذا نصبت بعدها الأفعال وكذلك قولك: متى تخرج فأخرج معك... ولام الجحود إنما تعرف من لام كي بأن يسبقها جحد كقولك: ما كان زيد ليخرج ولست لأقصد زيدا ونحو قول الله تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) و (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) و (ما كان الله ليطلعكم على الغيب) وما أشبه ذلك"[1].

ولقد ذكر المرادي أن الأصل في مجيء لام الجحود إنما يكون مع "كان" الناقصة، في حين أن بعض النحاة أجاز أن تأتي لام الجحود مع أخوات "كان" قياساً عليها، غير أنه ذكر صراحة بأن الصواب في لام الجحود أن تأتي بعد "كان" الناقصة المنفية، وإن كانت بعد شيء لم يذكر فيه "كان" فإن "كان" تكون محذوفة، كقول أبي الدرداء: ما أنا لِأدعه، فالتقدير في ذلك: ما كنتُ لأَدعهُ[2].

ومعنى: "ما كان الله لِيذر"، أي: ما كان الله لِيدعكم، فمعنى الآية الكريمة أن الله لا يدع المؤمنين في الحال التي هم عليها من عدم تمييزهم بين المؤمن والمنافق، بل إنه

---

[1]. الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (1985م). كتاب اللامات، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق ــ سوريا، الطبعة الثانية ص: 68 ــ 69، وانظر: المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 116.

[2]. انظر: المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 116 ــ 117.

سبحانه وتعالى لا بد من أن يبتلي المؤمن حتى يعلم إيمانه، ويبتلي المنـــافق حتـــى يسقط بنفاقه، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى بالخبيث المنافقين، وبالطيب المـــؤمنين، وهو تفسير قد اختلف فيه العلماء[1].

أما الشق الثاني من الآية الكريمة فنحن نرى أنه قد جاء متناسباً مع صدر الآيـــة الكريمة، فلما بدأت الآية بـــ "ما كان"، أصبح من الجمال بمكان أن يأتي صدر الآية أيضاً محتوياً على "ما كان"، فجاءت جملة: "وما كان الله لـــيطلعكم علـــى الغيـــب"، فمعنى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى لا يطلع أحداً على الغيب إلا بعض الرســـل الذين يجتبيهم ربنا سبحانه وتعالى، فيطلعهم على بعض الغيب وليس كله[2].

ومن لطائف ما قيل في هذه الآية الكريمة قول القشيري: "جمعهم اليوم من حيـــث الأشخاص والمبانى، ولكنه فرّقهم فى الحقائق والمعاني فمن طيّبـــة ســـجيته، ومـــن خبيئة طينته. وهم وإن كانوا مشائب ففى بصيرة الخواص هم ممتازون"[3].

وذكر الزمخشري أن اللام الداخلة في خبر "كان" إنما هي لتأكيد النفي الحاصل من أن الله تعالى لن يذر المؤمنين مختلطين بالمنافقين دون أن يميز الله سبحانه وتعالى بينهم، فاللام هاهنا إذن للتأكيد[4]، ثم يذكر الزمخشري كلاماً عن معنى قوله تعـــالى: "وما كان اللهُ ليُطلعكم على الغيب"، فيربطه بالمعنى الذي قبله، إذ يقول: "ثم قال وَمَـــا كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ أى وما كان اللّه ليؤتى أحداً منكم علم الغيـــوب، فـــلا تتوهموا عند إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنـــه يطلع على ما في القلوب اطلاع اللّه فيخبر عن كفرها وإيمانها وَلكِـــنَّ اللَّـــهَ يرســـل

---

1. الطبري. جامع البيان، ج: 7، ص: 424.

2. الثعلبي. الكشف والبيان، ج: 3، ص: 219.

3. القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (د.ت). لطائف الإشارات، تحقيـــق: إبـــراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـــ مصر، الطبعة الثالثة ج: 1، ص: 299.

4. انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (1407هـــ). الكشاف عن حقائق غـــوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت ـــ لبنان، الطبعة الثالثة ج: 1، ص: 445.

الرسول فيوحى إليه ويخبره بأنّ في الغيب كذا، وأن فلانا في قلبه النفاق وفلانا في قلبه الإخلاص، فيعلم ذلك من جهة إخبار اللَّه لا من جهة اطلاعه على المغيبات"[1].

ومن خلال نظرتنا في الآية الكريمة يتبين لنا أن الموضعين على ارتباط وثيق بينهما، فالأول يتحدث عن معرفة الله سبحانه وتعالى بأصحاب النفاق وأصحاب الإيمان، أما الموضع الثاني فيتحدث عن أن الله سبحانه وتعالى يُطلع بعض رسله على الغيب، فيخبره بمن يتصف بالنفاق أو بالإيمان، ولقد وازن الأسلوب القرآني بين الموضعين موازنة كبيرة، فكل موضع منهما يحتوي على "ما"، ثم يتبع "ما" بـ "كان"، وبعد ذلك فإن خبر "كان" مسبوق بلام الجحود، هذا يعني أيضاً أن الخبر جملة فعلية فعلها مضارع منصوب، وهو توازن كبير جداً بين هذين الموضعين من هذه السورة الكريمة.

ولقد كان استعمال "كان" في النص ذا تأثير كبير على طبيعة المعنى، فالله سبحانه حين استعمل "كان" دل ذلك على عموم معنى الآية، فلو لم تُستعمل "كان" فكان نص الآية مثلاً: ولن يذر الله، فإن المعنى في هذه الحالة يكون منصباً على الزمن الحاضر أو المستقبل، أما حين دخلت "كان" في بداية الجملة دل ذلك على أن الله سبحانه لم يذرهم، ولن يذرهم، وهو معنى إنما وقع في النص بعد دخول "كان" على الآية الكريمة.

ومن خلال ما سبق من كلام يتبين لنا مدى التأثير الذي أحدثته "كان" في معنى الآية الكريمة، وكيف أنها أثرت في دلالة النص، وما أدخلته من زيادة في معنى الكلام، وبالتالي فإن وجود "كان" يمثل وجوداً مهماً في تركيب المعنى إذا ما أُخِذ بعين الاعتبار بأن الله سبحانه وتعالى هو المقصود بالكلام، والخطاب إما أن يكون للمؤمنين أو للكافرين.

وبهذا الكلام نكتفي بإيراد هذا العدد من الأمثلة على الحالة التركيبية الأولى التي ترد بها "كان" في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولقد وردت هذه الحالة التركيبية في

---

[1]. الزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 445، وانظر: أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي (1420هـ). البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت – لبنان ج: 3، ص: 447.

مواضع كثيرة لا نحصيها، والسبب في ذلك كثرتها، حيث تعدت عشرات المـرات، ولقد رأينا كيف أن "كان" أثرت في معنى النص، وأسهمت في تكوين دلالة مختلفـة عما هو مرتبط بالنص لو لم تتصل به "كان"، ومن ناحية أخرى فـإن "كـان" هـي القادرة على صياغة ذلك المعنى المنوط بالآية الكريمة، ولا يمكننا أن نستبدل وجود غيرها بوجودها في نص الآية، فالمعنى الذي يتحصل بها لا يتحصل بغيرها.

ومن خلال ما قدمناه سابقاً نجد أن حضور "كان" المسبوقة بـ "ما" والتـي هـي مسندة إلى الاسم الظاهر في كتاب الله سبحانه وتعالى كثير، ومن بين المواضع التي جاءت مثالاً على هذه الحالة قوله سبحانه: "يا أختَ هارونَ ما كانَ أَبوكَ امْرَأَ سَـوْءٍ وَما كانتْ أُمُّكِ بَغِيًّا"[1]، وقوله سبحانه: "وكانَ أَمْرُ اللهِ قدراً مَقْدوراً"[2]، فهذه المواضـع وغيرها من المواضع لا سبيل إلى الحديث عنها بشكل مفصل في هـذا الموضـع، وإنما اكتفينا بالتمثيل عليها بما سبق من الأمثلة، ولو أننـا ذكرنـا هـذه المواضـع بالتفصيل لطال بنا المقام، وزاد في ضخامة الدراسة دون حاجة لذلك.

2.2 "ما كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المستترة:

أما هذا الشكل التركيبي لـ "كان" في كتاب الله تعالى فيتمثل كما نرى من خـلال العنوان بـ:

ما + كان + ضمير مستتر للغائب أو للغائبة.

فـ "كان" في هذا الشكل من الجمل مسندة إلى ضمائر للمفرد الغائب، وبالتـالي فإن ذلك لا بد أن يكون له تأثير في صياغة المعنى والدلالة، هذا من ناحيـة، ومـن ناحية أخرى فإن هذا الشكل التركيبي يمكننا أن نجده بشكل واضح وجلي في كتـاب الله سبحانه وتعالى، وفيما هو آت عرض لأمثلة على ذلك:

يقول الله سبحانه وتعالى: " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَـا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"[3].

---

[1]. سورة مريم، آية: 28.

[2]. سورة الأحزاب، آية: 38.

[3]. سورة الأعراف، آية: 70.

ويبدو لنا التركيب واضحاً في الآية القرآنية الكريمة، حيث إنه جاء قوله تعـــالى: "ما كان يعبد آباؤنا" مثالاً واضحاً على الحالة التركيبية التي نحن في صدد دراستها، وفي الوقت ذاته فإن "كان" هاهنا أُسندت إلى الضمير الغائب، فاسم "كان" فـــي هـــذه الآية الكريمة مستتر[1]، ولقد أشار الدرويش أيضاً في إعرابه أن "ما" التـــي ســـبقت "كان" هي الموصولة، والتي تأتي بمعنى الذي، وهي في محل نصب مفعول به فـــي الآية الكريمة للفعل "تذر"[2].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: "قالت عاد له: **(5)** أجئتنا تتوعَّـــدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعـــة خالصًا، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرَّأ منها؟ فلـــسنا فاعِلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه، فأتنا بمـــا تعـــدنا مـــن العقـــابِ والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه مِنَ الأوثـــان، إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعِدُ"[3].

ومعنى الآية الكريمة أن قوم عاد أنكروا أن يكون الله سبحانه وتعـــالى مـــستحقاً للعبادة وحده دون غيره من سائر الآلهة، وهذا الفكر كان لديهم متوارثاً من آبـــائهم، ولقد اعتادت عليه نفوسهم، وألفته أرواحهم، ومعنى قولهم: "أجئتنـــا" أنهـــم قـــصدوا بالمجيء مجيء هود عليه السلام، وأنه كيف جاء إليهم؟ مـــع ظـــنهم أن رســـل الله سبحانه وتعالى ملائكة تنزل من السماء، فهم يستنكرون على هود أن يكون نزل من السماء، وهو قد كان بينهم[4].

وأما ذكر قوم عاد لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده فيه قولان:

---

[1]. درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (1415هـ). إعراب القرآن وبيانـــه، دار الإرشـــاد للشئون الجامعية، حمص ـــ سوريا، ودار اليمامة للنشر والتوزيع، دمشق سوريا، وبيروت ـــ لبنان، ودار ابن كثير، دمشق ـــ سوريا، وبيروت لبنان، الطبعة الرابعة ج: 3، ص: 384 ـــ 385.

[2]. انظر: درويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 3، ص: 384.

[3]. الطبري. جامع البيان، ج: 12، ص: 520 ـــ 521.

[4]. الزمخشري. الكشاف، ج: 2، ص: 117.

الأول: أنهم لا يريدون إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة وحده، مع إقرارهم بأن الله تعالى موجود، وأنه مستحق للعبادة.

الثاني: أنهم قالوا هذه العبارة كما يقولها "هود" عليه السلام، فكأنهم قالوا نعبد الله وحده كما تقول يا هود.

أما قولهم: "فأتنا" فإنما هو إصرار منهم وتحدٍّ لنبيهم على أن يأتيهم بالعذاب الذي كان يُخوفهم به[1].

وتفسير الآية الكريمة كما نرى واضح لنا، وبيّن أمامنا، غير أننا يمكننا أن نلحظ أن مناط الاستشهاد في هذه الآية، وما نريد البحث فيه هو قوله تعالى: "ونذر ما كان يعبد آباؤنا" فكما نرى فإن التركيب يتكون من:

ما + كان + ضمير مستتر.

فلقد أسندت "كان" في هذه الآية الكريمة إلى الضمير المستتر، وسبقتها "ما" ونوع "ما" في هذه الآية كما ذكر الدرويش وغيره من العلماء هي "ما" الموصولة بمعنى الذي، وهي تستعمل لغير العاقل كثيراً، وللعاقل قليلاً.

ومجيء "ما" الموصولة التي يُكنى بها عن غير العاقل في هذه الآية الكريمة دلنا على أن تلك الآلهة التي كان يعبدها قوم عاد لا تعقل، وكذلك فإن استخدام "ما" هنا يدل على تعدد تلك الآلهة، وهو أمر طبيعي من المشركين بالله أن تكون عندهم آلهة كثيرة.

أما مجيء "كان" في هذا التركيب على ما نرى فلقد كان له أثره في الدلالة والمعنى، فالمعنى الذي أفادته "كان" هاهنا يتعلق بما مضى من عبادة آباء أولئك الكفار والمشركين للأصنام، ولذلك جاءت "كان" بصيغة الماضي، ولم تأتِ بصيغة المضارع، إذ إن الواقع أن يكون آباء المشركين المتكلمين في الآية الكريمة قد ماتوا وانتهوا ولا وجود لهم في واقع الحياة.

---

[1]. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (1422هـ). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ج: 2، ص: 419، وانظر: أبو حيان. البحر المحيط، ج: 5، ص: 88.

ومن ناحية أخرى فإن مجيء الفعل "يعبد" مضارعاً له فائدته ودلالته الخاصة به، ففرق بين قولنا: ما كان يعبد آباؤنا، وقولنا: ما كان عبد آباؤنا،فاستعمال الفعل المضارع في الحالة الأولى يدل على أن عبادة الأصنام قد استمرت طوال حياة آبائهم، ولم ينقطعوا في فترة ما عن عبادة تلك الأصنام، ولو قلنا: ما كان عبد آباؤنا، ربما كان المعنى أنهم عبدوا الأصنام، ثم غيروا عبادتهم، فيتبين لنا من خلال هذا الكلام ما عليه حال عبادة المشركين مع آبائهم في حياتهم تلك.

وما دام الأمر يتعلق بعبادة آباء المشركين، وأن آباءهم قد ماتوا وانتهوا، فلماذا لم تأتِ الجملة على نحو: ما عَبدَ آباؤنا؟

إن هذه الجملة تدل على أن العبادة قد تمت في الزمن الماضي، وبالتالي فإنه لا وجود لها في الحال، كقولنا: أكلْتُ الطعام، يعني ذلك أن المتكلم قد أكل الطعام، والآن لا وجود للطعام ولا وجود للأكل، فلو قلنا بذلك في الآية الكريمة دل على أنه لا وجود للعبادة ولا وجود للأصنام، وهو أمر يتنافى مع واقع الحال عند قوم عاد، فهم كانوا يعبدون الأصنام، وكانوا متبعين لدين آبائهم، ولا يريدون من هود ـ عليه السلام ـ أن يؤثر في دينهم، فيدفعهم ذلك إلى ترك عبادة الأصنام التي كان يمارسها آباؤهم، وهذا المعنى كما نرى قد تأتى من التركيب: ما عبد آباؤنا، وبالتالي يظهر لنا بوضوح تميز تركيب" ما كان يعبد آباؤنا" على ما سواه من التراكيب، مع عموم الفائدة، وصحة الدلالة وسلامة المعنى.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا الأثر الدلالي الذي أحدثته "كان" وما هو في حيزها في الآية القرآنية الكريمة، ووجود "كان" في تلك الآية له أثره في الدلالة بما لا يمكن لأي فعل من أفعال العربية أن يُحدثه دلالياً، وبالتالي يبدو لنا بوضوح أثر "كان" في تكوين الدلالة، مع الإشارة إلى تأثير "كان" أيضاً فيما بعدها من كلام، سواء في التركيب أم في الدلالة.

وننتقل إلى موضع جديد من المواضع المراد دراستها في هذا الجزء من الدراسة، وهو قوله سبحانه وتعالى: " وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ"[1].

---

[1]. سورة النمل، آية: 43.

والموضع المراد دراسته في هذه الآية الكريمة كما نرى يتمثل في قوله سبحانه وتعالى: "ما كانت تعبد من دون الله"، حيث جاء التركيب في هذه الآية على هذا النحو:

ما + كانت + مسند إلى ضمير غائبة + خبر جملة فعلية.

فيظهر لنا من خلال هذا التركيب أن "كان" مسبوقة بـ "ما" في هذه الآية الكريمة، ونوع "ما" هي اسم موصول لغير العاقل كثيراً، وللعاقل قليلاً.

أما معنى الآية فله وجهان يذكرهما الطبري، يتمثل الأول في أن الأوثان التي كانت تعبدها صدتها عن سبيل الحق وعبادة الله تعالى، والثاني: أي أن سليمان صدها ما كانت تعبد من دون الله، أي منعها وحال بينها، وهو وجه حسن أيضاً[1].

ويقول الزجاج في معانيه عن هذه الآية الكريمة: "أي صدَّها عن الإيمانِ العادَةُ التِي كَانَت عَلَيْها، لأنها نَشَأتْ ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشَمْسَ، فَصَدَّتها العَادَةُ، وَبَيَّنَ عادَتَها بقوله: (إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ) .

ويجوز أنها كَانَتْ من قوم كافرين فيكون المعنى صَدَّها كَونها من قوم كافِرِينَ ويكون مبيناً عن قوله عَز وَجَل: (مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)"[2].

ويظهر لنا الاستعمال القرآني الجميل لـ "ما" قبل "كانت" حيث إنها تدل على غير العاقل في التكنية عنه، وهي هنا كناية عن الوثن الذي كانت تعبده تلك الملكة مع قومها، ولقد كانوا يعبدون الشمس، والشمس كما نعلم لا تعقل، فكان استعمال "ما" التي بمعنى الذي في مكانه.

والوجهان اللذان ذكرناهما من قبل يترتب عليهما حالتان إعرابيتان، فالحالة الأولى في حال أن يكون كفرها صدها عن سبيل الله تعالى واتباع الحق، فإن "ما"

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 19، ص: 471 ــ 472، وانظر: الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي (1420هـ). مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة ج: 24، ص: 558.

[2]. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 4، ص: 122، وانظر: الكرماني، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر برهان الدين (د.ت). غرائب التفسير وعجائب التأويل، دار القبلة، جدة ــ السعودية، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت ــ لبنان ج: 2، ص: 852.

في هذه الحالة تكون في موضع رفع، على أنها الفاعل للفعل "صدها"، أما الوجه الثاني وهو أن يكون سليمان والله سبحانه وتعالى أعلم صدها عن عبادة الأصنام، أي منعها، فإن "ما" تكون في موضع نصب[1].

ونرى من خلال الآية القرآنية الكريمة أن "كان" قد أثرت في الدلالة تأثيراً كبيراً، فالمعنى بوجود "كان" يختص باستمرارية العبادة لغير الله في الزمن الماضي، ولم تكن تلك العبادة في فترة زمنية ماضية ثم انقطعت، بل استمرت طوال الزمن الماضي.

وفرق كبير في المعنى بين قولنا: ما كانت تعبد من دون الله، وقولنا: ما عبدت من دون الله، فلقد جاءت الآية تتكلم عن بلقيس قبل دخولها في دين سليمان، ومن هنا بيّنت الآية أن دينها يصدها عن اتباع الحق، هذا من ناحية، أو أن سليمان سيمنعها من اتباع الباطل.

وهناك شيء من التوازن في زمن الآية الكريمة، فبعد أن جاءت "كانت" في صدر الآية الكريمة، كان من الضروري المواءمة بين "كان" وما يقع بعدها؛ لذا قال سبحانه وتعالى: كانت من قوم كافرين، وهو السبب الذي جاء به القرآن لبيان ما هي حال تلك المرأة في ذلك الوقت المخصوص، وبالتالي كان التوازن متحصلاً من خلال ذكر "كان" في عجز الآية القرآنية الكريمة.

وهكذا يتبين لنا من خلال ما سبق أنه إذا جاءت "كان" متبوعة بخبر جملة فعلية فعلها مضارع، فإن ذلك يدل على أن الحدث كان مستمراً في الزمن الماضي، فكانت

---

[1]. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (1421هـ). إعراب القرآن، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ج: 3، ص: 145، وانظر: النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (1409هـ). معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة – السعودية، الطبعة الأولى ج: 5، ص: 137، والباقولي. إعراب القرآن، ص: 341، و العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (د.ت). التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة – مصر ج: 2، ص: 1009.

تعبد، يعني ذلك أن العبادة لم تكن مقصورة على فترة زمنية محددة في الزمن الماضي، بل إن العبادة كانت مستمرة في الزمن الماضي عموماً.

3.2 "ما كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المتصلة:

يحتل هذا اللون من التراكيب الشائعة "لكان" في كتاب الله تعالى مكاناً واسعاً بين آيات القرآن الكريم، حيث نجد عدداً كبيراً من الآيات القرآنية التي تأتي بهذا النمط التركيبي لـ "كان" المسبوقة بـ "ما" في كتاب الله تعالى، وضمائر الرفع المتصلة كما نعرفها هي:

1ـ واو الجماعة.

2ـ ألف الاثنين أو الاثنتين.

3ـ تاء الفاعل، سواء أكانت للمتكلم أو للمخاطب أو للمخاطبة، أو للمفرد والمثنى والجمع.

4ـ نون النسوة.

5ـ "نا" المتكلمين.

فضمائر الرفع المتصلة هذه يرد عدد كبير منها في كتاب الله تعالى وقد أسند إليها "كان" المسبوقة بـ "ما"، وفيما يلي سوف نتحدث عن عدد لا بأس به من الأمثلة حول هذه الحالة التركيبية التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"[1].

كما نلحظ من الآية القرآنية الكريمة فإن التركيب المراد دراسته يتمثل في قوله سبحانه وتعالى: "ما كانوا يفترون"، فالتركيب يتضح لنا على هذا النحو:

ما + كان + واو الجماعة (مسند إليه) + خبر كان (جملة فعلية).

والآية القرآنية الكريمة تتحدث عن الحال والاعتقاد الذي كان يسود في أذهان بعض الكفرة الذين رأوا أن الله سبحانه وتعالى لن يعذبهم إلا عذاباً قليلاً، ثم يدخلهم

---

[1]. سورة آل عمران، آية: 24.

الجنة، هذا الكذب والافتراء على الله تعالى أصابهم بالغرور، فأفضى هــذا الغــرور بهم إلى أن يكون دينهم لا فائدة منه.

والآية الكريمة تتحدث عن بني يهود، الذين دعوا إلى كتــاب الله تعــالى لــيحكم بينهم، ثم هم أبوا وترفعوا عن ذلك، وكان من ادعائهم أنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، وهذه الأيام هي أربعون يوماً، وهي مدة عبادتهم للعجل، ولقد تولد هذا الشعور بأن الله تعالى لن يدخل اليهود النار من ظنهم أن الله سبحانه وتعالى قد وعد يعقوب عليه السلام بأنه لن يدخل أحداً من ذريته النار، ومن هنا قال اليهــود هــذا الزعم منهم، فبيّن الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنما هذا زعم وافتراء وكذب منهم، وأنهم خالدون مخلدون في نار جهنم[1].

أما موضع الغرور الذي كان في صدور ونفوس هؤلاء الكفار من بني يهود فهو متمثل بأنهم ظنوا أن أنبياءهم ورسلهم سوف يشفعون لهم من عذاب النار، وبالتــالي فإنهم لن يمكثوا في نار جهنم طويلاً، وأنهم سوف يخرجون منها، وهذا هو الغــرور الذي نشأ من افترائهم هم[2].

ويقول النسفي في تفسير هذه الآية الكريمة: " أي ذلك التولي والإعراض بــسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم في الخروج من النار بعد أيام قلائل وهي أربعون يوما أو سبعة أيام وذلك مبتدأ وبأنهم خبره {وَغَرَّهُمْ فِي دِيــنِهِم مَّــا كَــانُواْ يَفْتَرُونَ} أي غرهم افتراؤهم على الله وهو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه فــلا يعــذبنا بذنوبنا إلا مدة"[3].

---

[1]. انظر: الطبري. جامع البيان، ج: 6، ص: 292.

[2]. انظر: الزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 349، و البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بــن عمــر الشيرازي (1418هــ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 2، ص: 11.

[3]. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (1998م). مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو، دار الكلم الطيب، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 245، وانظر: أبو حيان. البحر المحيط، ج: 3، ص: 82 ــ 83.

ومن خلال مضمون كلام النسفي يتبين لنا أن "ما" هاهنا تمثل فاعلاً للفعل "غرهم"، فهي اسم موصول بمعنى "الذي" في محل رفع فاعل مؤخر.

وكما نرى من خلال الآية القرآنية الكريمة، فإن "كان" في هذا الموضع قد أدت حاجة دلالية لا يمكن لغيرها أن يؤديها، فهي تدل على الزمن الماضي، ولكن إسنادها إلى الضمير المرفوع أدخل فيها بعض المعاني، ومجيء خبرها جملة فعلية فعلها مضارع يؤدي ذلك أيضاً معنى آخر زيادة على المعنى الأصلي.

إن "ما" التي تسبق "كان" في الآية الكريمة ـ فيما نظن ـ أنها "ما" الموصولة، أي أنها بمعنى "الذي"، وبالتالي فهي بدلالتها العامة على معنى غير العاقل دلت على عموم الافتراء الذي اتصف به اليهود منذ سالف الأيام، وبالتالي فإن ذلك يؤدي إلى شمولية وعموم في طبيعة التعامل اليهودي مع واقعهم الديني، ومن ناحية ثانية فإن "كان" أدت دور الزمن الماضي في الجملة، فهي تدل بتركيبها على الزمن الماضي، وهو تناسب آخر مع الفعل "غرهم"، فلو كان الفعل "غرهم" بصيغة المضارع لاختلف الأمر بينه وبين "كان"، وبالتالي فإن الدلالة تختلف بناء على ذلك.

أما وجود ضمير الرفع المتصل بـ "كان" فهو ذو دور دلالي معين، إضافة إلى دوره التركيبي، فالأمر عائد إلى طبيعة السبك القرآني، فالواو هنا عائدة على جماعة الغائبين الذين يتمثلون لنا تركيبياً بـ "هم" الضمير المتصل بـ "غرهم"، وهو ناحية تركيبية جديرة بالنظر، ومن ناحية أخرى فإن اتصال هذا الضمير يشكل نوعاً من التوازن النصي، إذ إن الضمير يسهم بشكل فعال في إيجاد الترابط النصي بين الكلمات المختلفة، وهو ما قام به الضمير المتصل بـ "كان" في الآية الكريمة.

أما الخبر الذي يمثل جملة فعلية فعلها مضارع فهو دليل على استمرارية حدث الافتراء عند اليهود عبر الأعوام والسنين، حتى نزول القرآن الكريم، وبعد تمام نزوله، فالدلالة على الاستمرارية نراها واضحة في كلمة "يفترون"، في حين أخذت "كان" بدورها الدلالة على الزمن الماضي، والمرتبط بالدرجة الأولى بالفعل "غرهم"، فهو فعل ماضٍ، ولا بد له من فعل آخر يقع في عجز الآية كي تكتمل الدلالة من خلال التركيب المتوازن.

وأخيراً يتبين لنا من خلال ما ذكرناه سابقاً الدور الذي لعبته "كان" في صياغة المعنى والدلالة في الآية القرآنية الكريمة، وهي دلالة لا يمكن لأي فعل أن يقوم بها على الوجه الذي رأيناه مع "كان".

وننتقل للحديث عن موضع قرآني آخر يحتوي على "كان" مسندة إلى ضمير رفع متصل، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: " ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ"[1].

ويظهر لنا من خلال نص الآية القرآنية الكريمة أنها تحتوي على مثال واضح على "كان" المسبوقة بـ "ما"، والمسندة إلى ضمير الرفع المتصل، وهو "نا" المتكلمين، وتركيب الجملة يمكن أن يظهر لنا على النحو الآتي:

ما + كان + "نا" + خبر مفرد.

أما "ما" الواردة في الآية القرآنية الكريمة فهي "ما" النافية، وهي تنفي ما بعدها، فهي تنفي عن المتكلمين اتصافهم بالشرك، ويورد الطبري كلاماً لابن عباس يبين فيه ماهية هذا الموقف الذي عليه المشركون يوم القيامة، فيقول: " فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله يغفر لأهل الإسلام ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركًا، ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره = جحد المشركون فقالوا:"والله ربنا ما كنا مشركين"، رجاءَ أن يغفر لهم، فختم على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك:"يَودّ الذين كفروا وَعصوُا الرسول لو تسوَّى بهم الأرضُ ولا يكتمون الله حديثًا""[2].

فهذا الموقف كما نرى من خلال كلام ابن عباس يتمثل للمشركين يوم القيامة، وهي محاولة منهم لإخفاء ما كانوا عليه من شرك، أملاً منهم أن يغفر الله لهم، ويصدقهم بهذه الكذبة، فيدخلون الجنة، ولكن الله سبحانه وتعالى يبطل هذا الكذب بأن تنطق أعضاء هؤلاء الكفار مخبرةً بما كانوا عليه من الذنوب والمعاصي.

إن المشركين يوم القيامة حين يرون أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ما جاؤوا به من الذنوب، يقول بعضهم لبعض: لقد جئتم بذنب لا يغفره الله لكم، فتعالوا نقسم

---

[1]. سورة الأنعام، آية: 23.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 8، ص: 373.

بالله على أننا لم نكن مشركين، ومن ثم فإن الله سبحانه وتعالى يختم على أفــواههم، وتكلمه جلودهم، وتشهد عليهم أرجلهم، وبالتالي يحبط ما كانوا يفعلون[1].

أما أبو حيان فيذكر كلاماً ملخصه أن المشركين يوم القيامة يتبرأون مــن عبــادة الأصنام، يقول: " لَمْ يَكُنْ حُبُّهُمْ لِلْأَصْنَامِ وَإِعْجَابُهُمْ بِهَا وَاتِّبَاعُهُمْ لَهَا لَمَّا سُئِلُوا عَنْهَــا وَوَقَفُوا عَلَى عَجْزِهَا إِلَّا التَّبَرُّؤَ مِنْهَا وَالْإِنْكَارَ لَهَا، وَفِي هَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ كَانَ يَدَّعِي مَوَدَّةَ آخَرَ ثُمَّ انْحَرَفَ عَنْهُ وَعَادَاهُ يَا فُلَانُ لَمْ تَكُنْ مَوَدَّتُــكَ لِفُلَــانٍ إِلَّــا أَنْ عَادَيْتَهُ وَبَايَنْتَهُ وَالْمَعْنَى عَلَى ثُمَّ لَمْ تَكُنْ بِمَعْنَى مَوَدَّتِهِمْ وَإِعْجَابِهِمْ بِالْأَصْنَامِ إِلَّا الْبَــرَاءَةَ مِنْهُمْ بِالْيَمِينِ الْمُؤَكِّدَةِ لِبَرَاءَتِهِمْ، وَتَكُونُ الْفِتْنَةُ وَاقِعَةً فِي الدُّنْيَا وَشُرِحَتْ أَيْضًا بِالِاخْتِبَارِ وَالْمَعْنَى: ثُمَّ لَمْ يَكُنِ اخْتِبَارُنَا إِيَّاهُمْ إِذِ السُّؤَالُ عَنِ الشركاء وتوقيفهم اختبار لِإِنْكَارِهِمُ الْإِشْرَاكَ وَتَكُونُ الْفِتْنَةُ هُنَا وَاقِعَةً فِي الْقِيَامَةِ، أَيْ: ثُمَّ لَمْ يَكُنْ جَــوَابُ اخْتِبَــارٍ نَــالَهُمْ بِالسُّؤَالِ عَنْ شُرَكَائِهِمْ إِلَّا إِنْكَارَ التَّشْرِيكِ انْتَهَى"[2].

ويظهر لنا من خلال الآية الكريمة الأثر الذي أحدثته "كان" وما في حيزهــا مــن دلالة، ولقد تمثلت الدلالة بنفي فعل الكينونة عن المشركين، حيث سُبقت "كان" بــــ "ما" النافية، وباتالي فإن "ما" النافية تنفي وقوع ما بعدها، وهو ما حصل فــي الآيــة الكريمة.

والسؤال الذي نطرحه: لماذا لم تأتِ الآية على "لم نكن مشركين"، مع العلم بــأن الفعل المضارع يفيد الديمومة في الحدث في الزمن الماضي؟

هناك فرق كبير بين "لم نكن" و"ما كنا" في هذه الآية، فالكلام في الآيــة الكريمــة على لسان المشركين يوم القيامة، وبالتالي فإنهم سيحاولون جادين علــى أن يــأتوا بكلام وحجة تدفع عنهم العذاب، ومن هنا فإن كلامهم جاء بــ "كان" الماضية، علــى أساس أن تكون أكثر توكيداً للمعنى، فالمضارع يعني التغير والتحول، في حــين أن الماضي لما كان وانتهى فهو أقرب إلى الثبات من الفعل المــضارع، فالمــشركون

---

[1]. السمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 440، وانظر: البغوي. تفسير البغــوي، ج: 2، ص: 117.

[2]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 4، ص: 465.

يستخدمون اللغة حجة مقوية لحجتهم، فيأتون بـــ "كان" على أساس أنها ماضية، أكثر توكيداً وتأثيراً في الموقف.

إننا حين نتكلم عن قول المشركين فهو كلام الله على لسان المشركين، فمن بلاغة القرآن وفصاحته أن يأتي بلفظ الآخرين كما لو كانوا يريدون من اللفــظ أن يحقــق أكبر نتيجة مرجوة من المتلقي، وهو ما حصل في هذه الآية، فالله ســبحانه وتعــالى أتى بما سيقوله المشركون بلفظهم هم لو أرادوا أن يحققوا أكبر نتيجة من كلامهم.

ومن خلال ما سبق ذكره فإنه يظهر لنا بشكل جلي الأثر الكبير الذي أحدثته "كان" الماضية في الآية القرآنية، وهو أثر لا يمكن لغيرها من الأفعال أن يحققه.

وفيما يلي ننتقل إلى آية قرآنية أخرى من كتــاب الله ســبحانه وتعــالى، يقــول سبحانه: " تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِــنْ قَبْــلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ"[1].

إن الآية القرآنية الكريمة التي رأيناها من قبل تحتوي على موضع من المواضــع التي يجدر بنا أن ندرسها عن "كان" في كتاب الله تعالى، ولقد أتت على شكل تركيبي مخصوص، هذا الشكل التركيبي يتمثل بما يلي:

ما + كان + ضمير رفع متصل + خبر جملة فعلية.

ومن خلال هذا الشكل التركيبي الذي نراه يتبين لنا أن "كان" في الآيــة القرآنيــة الكريمة مسندة إلى ضمير الرفع المتصل للمفرد المخاطب.

والآية القرآنية الكريمة خطاب من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم، فهو يبين لــه أن ما ذكرته الآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية، والتي تحدثت عن قصة نوح، إنما هي من أنباء الغيب، ولا علم للنبي الكريم بها لولا إخبار الله سبحانه وتعالى له بهذه القصة، وبالتالي فإن الخطاب للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ونفي العلم بالغيب عنه صلى الله عليه وسلم، وعن قومه أيضاً، فلا يمكن لأحد أن يعلم الغيــب حتــى الرسول عليه السلام.

[1]. سورة هود، آيةى: 49.

فالنبي الكريم لم يكن يعلم هذه الأخبار، وقومه في الحكم بعدم المعرفة الغيبية سواء، فهم أيضاً لم يكونوا يعلمون شيئاً عن هذه القصص التي هي من أنباء الغيب[1].

ولما أشار القرآن الكريم بأن هذه القصص التي ذُكرت من قصة نوح عليه السلام وغيره من الأنبيء ضرب من الغيب، ولا يمكن لأحد معرفته إلا بسبب من الله سبحانه وتعالى، دل ذلك على صدق نبوة النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهو لو لم يكن نبياً فمن أين أتى بمثل هذه الأخبار، وكيف عرف كل هذه التفاصيل؟ ومن هنا فإن أخبار الغيب هذه تمثل دليلاً عقلياً منطقياً على صدق نبوة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ[2].

أما القشيري فيقول عن هذه الآية: " أعلمناك بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص، أو من قراءة كتاب فإن قابلك قومك بالتكذيب فاصبر، فعن قريب تنقلب هذه الأمور"[3].

أما الزمخشري فيقول في هذه الآية الكريمة: " تِلْكَ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. ومحلها الرفع على الابتداء، والجمل بعدها أخبار، أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، مجهولة عندك وعند قومك مِنْ قَبْلِ هذا من قبل إيحائى إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي. أو من قبل هذا الوقت فَاصْبِرْ على تبليغ الرسالة وأذى قومك، كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قيض لنوح ولقومه إِنَّ الْعاقِبَةَ في الفوز والنصر والغلبة لِلْمُتَّقِينَ. وقوله وَلا قَوْمُكَ معناه: إنّ قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده"[4].

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 15. ص: 356.

[2]. انظر: السمرقندي. بحر العلوم، ج: 2، ص: 154 ــ 155.

[3]. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 140.

[4]. الزمخشري. الكشاف، ج: 2، ص: 401، وانظر: أبو حيان. تفسير البحر المحيط، ج: 6، ص: 153، و ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (1999م). تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ج: 4، ص: 328.

ويبين ابن كثير معنى "ما كنت" بـ "لم يكن"، حيث يقول: "ما كنت تعلمها أنت ولا قومك، أَيْ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا، حَتَّى يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ: إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا"[1].

يتضح لنا من خلال كلام ابن كثير السابق إشارته إلى التبادل التركيبي بين "ما كنت" و"لم تكن"، والحقيقة أنه ثمة فرق بين هذين التركيبين، صحيح أنهما متساويان في الناحية التركيبية، إلا أننا نظن أنهما على حالة من الاختلاف الدلالي.

من المعروف لدينا أن "لم" حرف قلب، ويعني ذلك أنه يقلب زمن الفعل أو الجملة من الحال أو الاستقبال إلى الزمن الماضي، وبالتالي فإن أصل زمان الجملة يتمثل بالمضارع، ثم انتقل إلى الزمن الماضي بوساطة أداة القلب، أما "كان" فإنها تحمل دلالة الزمن الماضي بنفسها دون أن يؤدى لها ذلك من خلال أداة قالبة تقلب زمن الجملة من المضارع إلى الماضي.

والمعنى – في ظننا – المتحصل مع "ما كنت" يتمثل في النفي القطعي للعلم عند النبي – صلى الله عليه وسلم – بمثل هذه الأمور الغيبية، وهو تأكيد لغوي على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – يتلقى هذه القصص والمعلومات من الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن النبي بذاته لا يعرف شيئاً مكتسباً من كتاب أو تتلمذ على يد عالم أو كتاب، وهو تأكيد على نبوة النبي محمد – صلوات الله وسلامه عليه – في حين أن قولنا: "لم يكن" فيه دلالة على الاستمرارية والاستقبال رغم دخول "لم" القالبة عليه، إذ بقيت فيه بعض معالم الحالية والاستقبالية.

ومن خلال هذا الكلام يتضح لنا الأثر الذي أحدثته "كان" المسبوقة بـ "ما" النافية في معنى الآية القرآنية الكريمة ودلالتها، وأن هذه الدلالة لا يمكن لأي فعل من أفعال اللغة العربية أن يحققه على نحو ما رأينا مع "كان" وطبيعة التركيب الذي دخلته في كتاب الله سبحانه وتعالى.

ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ"[2].

---

[1]. ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، ج: 4، ص: 328.

[2]. سورة النمل، آية: 32.

نرى في الآية القرآنية الحالة التركيبية التي نحن في صدد دراستها في هذا الفصل، وهي مجيء "كان" مسبوقة بـ "ما"، وهي في هذه الآية مسندة إلى ضمير الرفع المتصل، وهو تاء المتكلم، وتركيب الجملة يظهر لنا على النحو الآتي:

ما + كان + تاء المتكلم + خبر مفرد.

لما وصل الكتاب الذي أرسله سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ جمعت قومها، وطلبت منهم المشورة، فجعلت من المشورة فتيا، وقالت إنها لن تقطع أمراً في شأن صاحب الكتاب أو الكتاب إلا أن يشهد عليها قومها في ذلك، ونقول في الكلام ما كنت لأقطع أمراً، وما كنت لأقضي أمراً، فقاطعة هنا بمعنى قاضية[1].

ويقول الزجاج في معانيه: " أَي بَيِّنُوا لي ما أَعمَل، والملأ وجُوهُ القَوْمِ، الذين هم مُلَاء بِمَا يحتاج إِلَيْهِ"[2].

ولقد قرأ عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ ما كنت قاطعة، ما كنت قاضية[3].

ولقد أشار البيضاوي أن ملكة سبأ حينما قالت لقومها "ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون"، إنما استعطفتهم بهذا الكلام، حتى يُعطوها المشورة المناسبة التي تريدها حول أمر كتاب سليمان ــ عليه السلام ــ والقوم ذكروا لها أنهم مستعدون للقتال، فقد مُتِّعوا بالأجسام القوية، والمقاتلة الفذة، غير أنهم طوع أمرها، فإنْ أرادت أن تُقاتل سليمان ــ عليه السلام ــ فلن يَعصوها، وإنْ أرادت أن تجعل هناك سلماً بينهم، فهم لن يخالفوها في ذلك، والأمر مرجوع إليها، فما تراه مناسباً سيقومون به معها[4].

---

1. الطبري. جامع البيان، ج: 19، ص: 453.

2. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 4، ص: 118، وانظر: السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي (1997م). تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ــ السعودية، الطبعة الأولى ج: 4، ص: 94.

3. ابن عطية. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: 6، ص: 83.

4. البيضاوي. أنوار التنزيل، ج: 4، ص: 159.

ويشير أبو حيان إلى أن المقصود بالأمر هاهنا ليس أمر ما جاء في الكتاب كما ذكر الطبري وغيره، بل إن الأمر المقصود هاهنا عموم الأمور، فهي في عموم أمرها لا تقطع أمراً حتى يشهد عليها من حولها من قومها، يقول أبو حيان: " مَا كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً: أَيْ مُبْرِمَةً وَفَاصِلَةً أَمْرًا، حَتَّى تَشْهَدُونِ: أَيْ تَحْضُرُوا عِنْدِي، فَلَا أَسْتَبِدُّ بِأَمْرٍ، بَلْ تَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعِي. وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: مَا كُنْتُ قَاضِيَةً أَمْرًا، أَيْ لَا أَبُتُّ إِلَّا وَأَنْتُمْ حَاضِرُونَ مَعِي. وَمَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا، عَامٌّ فِي كُلِّ أَمْرٍ، أَيْ إِذَا كَانَتْ عَادَتِي هَذِهِ مَعَكُمْ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَشِيرُكُمْ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ الْخُرُوجُ مِنَ الْمُلْكِ وَالِانْسِلَاكُ فِي طَاعَةِ غَيْرِي وَالصَّيْرُورَةُ تَبَعًا؟"[1].

ويظهر لنا في الآية القرآنية الكريمة الأثر الكبير الذي أحدثته "كان" المنفية بـ "ما" في الدلالة، فالدلالة تكون على نوعين حسبما ورد من أقوال في التفسير:

النوع الأول: أن تكون ملكة سبأ تقصد أنها لن تقطع أمراً فيما يخص الكتاب إلا بشهادة من حولها من قومها، وهذا القول خاص بهذا الموقف دون غيره من المواقف.

النوع الثاني: أن الدلالة تحمل طابع العموم كما ذكر أبو حيان، أي أن ملكة سبأ من عادتها أنها لا تبت القول في أمر إلا من خلال مشورة قومها وشهادتهم، وهذا نوع من إشراك قومها في الحكم، وفيه حفظ لها من الزلل وتحمل التبعات وحدها، فهي لا تقدم على أمر إلا بشهادة قومها، فتقيم عليهم الحجة كي لا يلوموها من بعد ذلك.

وهاتان الدلالتان إنما وُجدتا في المعنى من خلال "كان" ولا يمكن لفعل آخر أن يأتي بدلالة شبيهة لهذه الدلالة التي أتت بها "كان" في نص الآية الكريمة، فإن كان القصد من المعنى أنها لن تقطع أمراً يتعلق بأمر الكتاب وسليمان صاحب الكتاب إلا بشهادة قومها، فإن "كان" في هذا الموضع دلت على تحويل في الزمن، فهي بصيغتها ماضية، غير أن المعنى يأخذ المعنى الحالي أو الاستقبالي؛ لذا فإن الدلالة لا تستقيم لو كانت الآية: ما قطعتُ أمراً، فلو كانت الآية بهذا النص لدلت على الماضي فحسب دون غيره من الزمان.

---

[1]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 8، ص: 235 ــ 236.

أما في حال الدلالة على العموم كما ذكر أبو حيان فإن "كان" في هذه الحالة تحمل دلالة الاستمرار من الماضي إلى الحاضر والمستقبل، وهو أمر تختص به "كان" في هذه الآية، والدلالة على الحال والاستقبال تتأتى من خبر "كان" وهو "قاطعة"، فهــذه الكلمة اسم فاعل، واسم الفاعل يدل على الزمن الحاضر؛ لأنه إذا أضيف فإنه يــدل على الزمن الماضي، أما إذا لم يُضف فإنه يدل على الزمن الحاضر[1].

ويظهر لنا من خلال ما سبق كلامه الأثر الذي أحدثته "كان" في الدلالة العامة في الآية القرآنية الكريمة، وهي دلالة لا يمكن لغيرها من الأفعال أن تأتي بهــا، وهــذه خصوصية تختص بها "كان"، وميزة تمتاز بها عما سواها من الأفعــال فــي لغتنــا العربية، وهو أمر جدير بالملاحظة والدرس.

4.2 "**ما يكون**":

ويظهر لنا من خلال العنوان الحالة التركيبية التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعالى، فهي في هذه الحالة مسبوقة بــ "ما" كما رأينا سابقاً، ولكن "كــان" لا تأخــذ الشكل الماضي لها، بل تأخذ شكل الفعل المضارع، وهي متمثلة بالإسناد إلى المفرد المذكر، وهو أمر يمكننا رؤيته من خلال الياء المبدوء بها الفعل المضارع، وفيمــا يلي نتكلم عن بعض هذه الحالات والآيات القرآنية التي احتوت جملاً تركيبيــة مــن هذا الشكل، وبيان الدلالة المرتبطة بها.

يقول الله سبحانه وتعالى: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْــتَ قُلْــتَ لِلنَّــاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَــيْسَ لِــي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّــامُ الْغُيُوبِ"[2].

---

[1]. انظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1977 م). كتاب سيبويه، تحقيق: عبــد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ــ مصر ج: 1، ص: 164، و الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(1972 م). معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار، القاهرة ــ مصر ج: 2، ص: 420.

[2]. سورة المائدة، آية: 116.

ويظهر لنا في الآية القرآنية الكريمة الحالة التركيبية التي جاءت عليها "كان" بكل وضوح، فهي قد أتت على النحو الآتي:

ما + يكون + مسندة إلى المصدر المؤول المؤخر.

وتحمل "ما يكون" في هذه الآية دلالة النفي، حيث يرى بعض العلماء أنها بمعنى "ليس"، هذا ما نستشفه من خلال كلام أبي جعفر الذي ينقله إلينا الطبري في تفسيره، حيث يقول: "قال أبو جعفر: وأما تأويل الكلام، فإنه: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين"، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهًا لك يا رب وتعظيمًا أن أفعل ذلك أو أتكلم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق"، يقول: ليس لي أن أقول ذلك، لأني عبد مخلوق، وأمي أمَةٌ لك، وكيف يكون للعبد والأمة ادّعاء ربوبية؟"[1].

فهذه أحدى الدلالات التي تأتي بها "ما يكون" في هذه الآية، وذكر السمرقندي أن "ما يكون" في هذه الآية تعني ما ينبغي، أو ما يجوز، حيث يقول: "مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ يقول: ما ينبغي وما يجوز لى أَنْ أَقُولَ مَا ليس لى بحق. يعني: ليس بعدل أن يعبدوا غيرك إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ يعني: إن قلت لهم ذلك القول فَقَدْ عَلِمْتَهُ فإنك تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي يعني: ما كان مني في الدنيا وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ يعني: ولا أطلع على غيبك وما كان منك"[2].

أما القشيري فيقول في تفسير هذه الآية كلاماً لطيفاً، حيث يقول: "المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف. ثم إن عيسى- عليه السّلام- حفظ أدب الخطاب فلم يزكّ نفسه، بل بدأ بالثناء على الحق- سبحانه- فقال: تنزيها لك! إننى أنزهك عما لا يليق بوصفك.

ثم قال: «ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» أي إنى إن كنت مخصوصا من قبلك بالرسالة- وشرط النبوة العصمة- فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لى؟.

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 11، ص: 237.

[2]. السمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 431.

ثم إنى «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» . كان واثقا بأن الحقّ- سبحانه- عليم بنزاهته من تلك القالة"[1].

فما نراه من كلام القشيري أيضاً أنه جعل "ما يكون" بمعنى "ما يجوز" أو "ما ينبغي"، وهو بذلك يتابع السمرقندي فيما ذهب إليه من دلالة لـ "كان" المضارعة في الآية القرآنية الكريمة.

يقول الدرويش في إعراب هذا الجزء من الآية القرآنية الكريمة: "وقال فعل ماض، وسبحانك مفعول مطلق والجملة مقول القول، وما نافية ويكون فعل مضارع ناقص، ولي جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم، وأن وما بعدها في تأويل مصدر اسم يكون المؤخر"[2].

وهكذا يتبين لنا ما مدى الأثر الذي أحدثته "كان" المضارعة في الآية القرآنية، فهي تحتمل غير معنى، واحتمالها للمعاني الكثيرة يدل على أنها تأخذ جانباً كبيراً من الدلالة في هذه الآية القرآنية، فمرة تكون بمعنى "ليس" وأخرى تأتي بمعنى لا ينبغي أو لا يجوز، وهي في شتى الحالات تأخذ ناحية من النفي؛ لأنها أصلاً مسبوقة بـ "ما" النافية، ولكن حين نفسر "يكون" بـ "ليس" فإننا نجعل "ليس" حالة محل "ما يكون" كلها؛ لأننا لا نستطيع أن نجعلها مكان "يكون" دون ما، إذ في هذه الحالة يصبح المعنى بعيداً عن القصد، وهو أمر لا يجوز، فلا يمكننا القول "ما ليس" على اعتبار "ما" نافية.

وفي موضع آخر من كتاب الله سبحانه وتعالى يقول جل وعز: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[3].

---

[1]. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 1، ص: 456 ــ 457، وانظر: الزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 694، والرازي. مفاتيح الغيب، ج: 12، ص: 465.

[2]. درويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 3، ص: 52.

[3]. سورة المجادلة، آية: 7.

ومن خلال النظرة العامة في الآية الكريمة يتضح لنا مقصدنا منها، فنحن نقصد جملة "ما يكون من نجوى ثلاثة"، فهذه الجملة هي مدار البحث، وموضع الدراسة هاهنا، فلقد جاءت "كان" المضارعة في تركيب يتمثل بما يلي:

ما + يكون + اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه فاعل.

إن هذه الآية الكريمة تحتوي "يكون" ولكنها هاهنا ليست "يكون" مضارع "كان" الناقصة، وإنما هي مضارع "كان" التامة، وبالتالي فإن معناها يختلف عن معنى الأولى، ودلالتها تختلف أيضاً عن دلالة الأولى، فهي بمعنى وقع أو حصل أو حدث، ويقول الدرويش في إعرابها: " كلام مستأنف مسوق لتقرير سعة علمه تعالى وتبيان كيفيته، وما نافية ويكون فعل مضارع تام ومن حرف جر زائد ونجوى مجرور بمن لفظاً فاعل يكون محلاً"[1].

فالدرويش كما نرى عدها تامة، وجعل لها فاعلاً مجروراً لفظاً مرفوعاً محلاً، ونحن أتينا بكلام الدرويش أولاً لأنه يُعرب الآية إعراباً تاماً كما نرى، في حين أن باقي الكتب الأخرى من كتب التفاسير وأعاريب القرآن لا تعرب الآيات بمثل هذا التفصيل الذي يُعربه به الدرويش.

ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وما يخفى، فهو لا يحصل من أحد نجوى، وهو الكلام الخفي، وهو مأخوذ من الارتفاع، من قولك نجوة من الأرض، أي مرتفع، فالله سبحانه يعلم نجوى من يتناجى، فإن كانوا ثلاثة فهو الرابع، وإن كانوا خمسة فهو السادس، وهو معهم زادوا أو قلوا، والله سبحانه وتعالى جاء بهذه الآية لأن اليهود كانت تتناجى وكان النبي والله سبحانه قد نهياهم عن النجوى بما يغضب الله سبحانه، فجاءت هذه الآية وما بعدها لتدل على مطلق معرفة الله سبحانه وتعالى بما يحصل من عباده[2].

ويمكننا أن نستشف من خلال تفسير السمرقندي لهذه الآية الكريمة أنه يعد "يكون" تامة وليست ناقصة، وإن كان لم يذكر ذلك صراحة، إلا أنه لمح لذلك من خلال

---

[1]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 10، ص: 11.

[2]. انظر: الطبري. جامع البيان، ج: 22، ص: 468 ــ 470، والزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 5، ص: 136 ــ 137.

المضمون العام للنص، يقول: " مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُم يعني: لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم، ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ يعني: كان هو سادسهم، لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم. وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ يعني: عالم بهم وبأحوالهم أَيْنَ ما كانُوا في الأرض"[1].

أما الكرماني فهو يذكر نصاً واضح البيان في عده "يكون" تامة هاهنا، إذ يقول: "ما يكون أي ما يقع من نجوى ثلاثة"[2]، وهذا النص كما نرى واضح الدلالة على أن الكرماني يعد "يكون" تامة، إذ إنه فسرها بـ "يقع"، وهذا التفسير يتوافق مع أن تكون تامة، ولا يصح مع كونها ناقصة.

كما يظهر لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة فإن "يكون" وما يقع في حيزها من "ما" النافية التي قبلها، وفاعلها قد أثرت في بناء الدلالة في هذه الآية تأثيراً كبيراً، فهي هاهنا كما رأينا من خلال كلام العلماء تامة، ونحن نرى أيضاً أنها تامة، فعند تعويض "يقع" مكانها فإن المعنى يكون مستقيماً، ومع استقامة المعنى يفترض بنا أن نعدها تامة، ولا نعدها ناقصة.

ولكن السؤال الذي نطرحه على أنفسنا هو لماذا قال الله سبحانه "ما يكون" ولم يقل: "ما يقع"؟

إن دلالة "ما يكون" ـ في ظننا ـ أشمل وأعم من دلالة "ما يقع"، ففعل الكينونة يشمل وقوع الحدث في أي زمان كان، وفي أي مكان كان، أي أن "ما يكون" تشتمل على معنى العموم والشمول الذي لا تشتمل عليه "ما يقع" فالثانية تدل على حدث محدد، وزمن معين، وبالتالي فإنها لا تحمل معنى العموم الذي تحمله "يكون".

وهكذا يتبين لنا الأثر الذي أحدثته "كان" مع ما يقع في حيزها في هذه الآية الكريمة، فهي تدل على العموم والشمول، وبالتالي فإنها تدل بالضرورة على مطلق علم الله سبحانه، وتبين مدى سعة علمه، وأنه لا يقع حدث من أي شخص كان إلا بعلمه سبحانه وتعالى.

---

[1]. السمرقندي. بحر العلوم، ج: 3، ص: 416.

[2]. الكرماني. غرائب التفسير وعجائب التأويل، ج: 2، ص: 1193.

5.2 "**ما يكونوا**":

والأمر في هذا العنوان شبيه بالعنوان السابق، غير أن الاختلاف الوحيد أنه مقسم حسب التقسيم التركيبي الذي اعتمدناه في هذه الدراسة، فهو يتكــون مــن "يكــون" المسبوقة بــ "ما"، والمسندة إلى واو الجماعة، ولم نجد في كتاب الله سبحانه وتعالى إلا موضعاً واحداً يمثل هذه الحالة التركيبية.

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُــوَ مُوَلِّيهَــا فَاسْــتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

وواضح لنا في الآية القرآنية الكريمة الحالة التركيبية المراد دراستها فــي هــذا الجزء من الدراسة، وهو قوله تعالى: "أين ما تكونوا" حيث نجد أن التركيب النحوي واللغوي لهذه العبارة على النحو الآتي:

ما + تكونُ + مسندة إلى ضمير الجماعة.

فــ "تكون" في هذه الآية القرآنية الكريمة مسندة إلى أحد ضمائر الرفع المتصلة، وهو واو الجماعة،

والآية تتكلم عن مقدرة الله ومشيئته في تولية كل قوم بما شاء من وجهــة، فهــو يعلمه الأزلي يقدر لكل شخص وجهة يتوجهها[2]، فاليهود لهم قبلتهم التــي هــم لهــا مولين، والنصارى أيضاً لهم قبلتهم التي هم يولونها، أما الأمة المهدية فلقد هداهم الله إلى قبلته، وهم مولون إليها[3].

ومعنى قوله سبحانه وتعالى: "أين ما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً"، أي أن مــرجعكم إليه جميعاً، ومعادكم إلى الله سبحانه وتعالى[4].

---

1. سورة البقرة، آية: 148.
2. انظر: التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله (1423هــ). تفسير التستري، جمعها: أبو بكــر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيــضون، دار الكتــب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 1، ص: 32.
3. الطبري. جامع البيان، ج: 2، ص: 674 ــ 675.
4. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 1، ص: 226.

أما السمرقندي فيقول في تفسير هذه الآية كلاماً رائعاً، إذ يقول: " لِكُلٍّ وِجْهَةٌ، أي قبلة. والوجهة والجهة والوجه بمعنى واحد. أي لكل ذي ملة قبلة وَمُوَلِّيهَا، أي مستقبلها. وقيل: لكل دين وملة قبلة هو مولها. قرأ ابن عامر: «وَهُوَ مُوَلاَّهَا» والباقون بالكسر أي هو بنفسه موليها يعني الله مولاها وقال مقاتل: لكل أهل ملة قبلة هم مستقبلوها يريدون بها وجه الله تعالى. اسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، أي قال لهذا الأمة: استبقوا بالطاعات. وهذا كما قال في آية أخرى: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً[1]، أي جعلنا لكل قوم شريعة وسبيلاً، فإذا أخذوا بالسنة والمنهاج رضي عنهم. فأمر الله تعالى أهل هذه الشرائع أن يستبقوا الخيرات في الأعمال الصالحة، فقال تعالى: أَيْنَما تَكُونُوا في الأرض أْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً، يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة.

وقال مجاهد لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها
أمر كل قوم بأن يحولوا وجوههم إلى الكعبة.

ويقال: ولكل أمة قبلكم قبلة أمرتهم بأن يستقبلوها فاستبقوا الخيرات، يقول: بادروا الأمم بالطاعات. ثم قال تعالى: أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ، يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أي هو قادر على جمعكم يوم القيامة"[2].

فظاهر كلام السمرقندي يدلنا على أن "ما" الواردة في الآية الكريمة هي "ما" الشرطية، والدليل على أنها الشرطية أن الفعل المضارع الذي جاء بعدها جاء مجزوماً، فإن لم تكن شرطية فما الذي جزم الفعل المضارع بعدها؟

وبالتالي فإن "ما" الشرطية أفادت شرط المكانية، بمعنى في أي مكان كنتم فإن الله تعالى قادر على أن يأتي بكم جميعاً، وبالتالي فإن المعنى الذي تفيده "تكونوا" في الآية الكريمة يتمثل في إفادتها معنى العموم والشمول، فبأي مكان كان الناس فإن الله تعالى قادر على أن يأتي بهم جميعاً.

---

[1]. سورة المائدة، آية: 48.

[2]. السمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 102، وانظر: القشيري. لطائف الإشارات، ج: 1، ص: 135 ــ 136، والزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 205، وأبو حيان. البحر المحيط، ج: 2، ص: 5 ــ 7.

إن هذه الفائدة التي أفادتها "تكونوا" لا يمكن لفعل غيرها أن يفيدها، خصوصاً أن المعنى يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ودلالة العموم والشمول أفادت المتلقي أن يعلم ويقدر ما مدى علم الله سبحانه وتعالى، واتساع درايته في الكون، والمخلوقات التي خلقها، وبيان القدرة المطلقة التي يتصف بها سبحانه وتعالى.

وفي نهاية حديثنا عن "كان" المسبوقة بـ "ما" في القرآن الكريم في هذا الفصل فلا بد لنا من أن نسجل بعض النتائج التي توصلنا إليها، وهي على النحو الآتي:

أولاً: إن "ما" النافية تدخل على "كان" الماضية والمضارعة، فإن دخلت على الماضية دل ذلك على أن المقصود بالحدث أمر تم وانقضى، أو شخص ليس موجوداً في وقت حديث الآية الكريمة، أما إذا دخلت "ما" النافية على "كان" المضارعة فإن ذلك يدل على أن صاحب الحدث أو المعني به حاضر في الزمن الذي تتكلم عنه الآية، ومثاله الآية الأخيرة، فالله تعالى قال: "أينما تكونوا"، فالخطاب هنا للناس الموجودين في الأرض، لذا كانت "كان" مضارعة، ولم تأتِ ماضية.

ثانياً: تؤثر "كان" الماضية في زمن الجملة بشكل كبير، فهي تدل على الماضي، ولكن قد يأتي خبرها جملة فعلية فعلها مضارع، فالأمر هنا يختلف، وتصبح الدلالة أن الحدث كان مستمراً في الزمن الماضي، كأن نقول في كلامنا: كان عليٌّ يمشي، فهذا يدل على أن علياً لا يمشي الآن، وهو في الزمن الماضي كان حدث المشي مستمر لديه.

ثالثاً: لقد كان استعمال "كان" في الأسلوب القرآني لا يقتصر فحسب على "كان" الناقصة التي نعرفها، بل كان استعمال القرآن يأخذ من "كان" الناقصة، و"كان" التامة، وباتالي فإن كلاً من هاتين الكلمتين لها دلالتها في الجملة، ولها قيمتها الدلالية والمعنوية في التركيب والسياق، فلم يرتكز القرآن على واحدة دون الأخرى، ولم يُلغِ إحداهما، بل كان أكثر الآيات مجيئاً على "كان" الناقصة؛ والسبب في ذلك عائد إلى أن "كان" الناقصة تمثل المساحة الكبرى في الاستعمال اللغوي العام.

رابعاً: إن أكثر ما لفت انتباهنا في استعمال "كان" في الأسلوب القرآني يتمثل في مجيئها لتدل على العموم والشمول، وهي في هذه الحالة تدل أيضاً على مطلق

معرفة الله سبحانه وتعالى، وتدل على عموم قدرته، وشـــمول معرفتـــه، فهـــذه صفات يتصف بها الله عز وجل، ومن ناحية أخرى فإن أكثر المواضـــع التـــي جاءت فيها "كان" تتمثل في الحديث عن صفات الله ســـبحانه وتعـــالى، أو عـــن مطلق قدرته عز وجل.

وبهذا الكلام نكون قد انهينا الفصل الثاني من هذه الدراسة، ســـائلين الله ســـبحانه وتعالى أن يكتب بها النفع، وفيما يلي ننتقل للحديث عن فصل جديد يحتـــوي هيئـــة تركيبية عامة لـــ "كان" في كتابه العزيز.

الفصل الثالث

"كان" المسبوقة بـــ "لو" في القرآن الكريم

لقد ذكرنا فيما سبق من فصول أن تقسيم فصول الدراسة كان بناء على الحالـــة التركيبية التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعالى بشكل عام، فهناك أنماط تركيبية تتكرر كثيراً في النص القرآني، ومن بين هذه الأنماط التركيبية ما سنتناوله في هـــذا الفصل، والذي يتمثل بمجيء "كان" الناقصة أو حتى التامة مسبوقة بـــ "لو"، وهـــي حالة تركيبية متكررة بشكل يمكننا أن نلحظه بوضوح في كتاب الله تعـــالى، ولا بـــد لهذا التكرار من أثر في النظم القرآني، ولا بد أيضاً مـــن أن يكـــون لهـــذا الـــنمط التركيبي أثر في الدلالة العامة للآيات القرآنية المراد دراستها، وهذا ما سنوضحه إن شاء الله تعالى في الصفحات القابلة.

وقبل أن نشرع ببيان الحالات التركيبية للآيات الكريمة لا بد لنا مـــن أن نـــتكلم بشيء ما عن "لو" التي تسبق "كان" في هذه الأنماط التركيبية المقـــصودة فـــي هـــذا الفصل.

يقول صاحب كتاب اللامات عن "لو" في العربية: "اعلم أن لـــو تليهـــا الأفعـــال ومعناها أن الشيء ممتنع لامتناع غيره وتستقبل باللام جوابا لها وربمـــا أضـــمرت اللام لأنه قد عرف موقعها وهي ضد لولا فلذلك فرقنا بين لاميهما وذلك قولـــك لـــو جاء زيد لأكرمتك والمعنى إن إكرامي إياك إنما امتنع لامتناع زيد عن المجيء فهذا معنى امتناع الشيء لامتناع غيره واللام هي الجواب، وإذا وقع بعد لو اسم، فإنمـــا يقع على إضمار فعل رافع له أو ناصب لأنها بالفعل أولى إذ كانت موضـــوعة لـــه وذلك قولك لو زيدا لقيته لأكرمتك تنصبه بفعل مضمر هذا تفـــسيره والرفـــع فيـــه ضعيف، وكذلك تقول لو زيد قدم لأكرمته ترفعه بفعل مضمر"[1].

إن ما ورد في كلام الزجاجي السابق يتضمن عدداً من الأمور التي تخص "لـــو" في تركيبها العربي، وهذه الأمور هي:

---

[1]. الزجاجي. اللامات، ص: 127.

أولاً: تختص "لو" بالدخول على الأفعال دون الأسماء، أما إذا دخلت على الاسم فإنه يُقدر له فعل رافع إن كان الاسم مرفوعاً، ويقدر له فعل ناصب إن كان الاسم منصوباً، والأمر جارٍ على ذلك.

ثانياً: إن "لو" في شأنها الدلالي تمثل وجهاً معاكساً لـ "لولا" في دلالتها، فالأخيرة تدل على الامتناع لوجود، أما "لو" فتفيد الامتناع للامتناع.

ثالثاً: تدخل اللام في جواب "لو" كما تدخل في جواب "لولا"، وإن كانت هذه اللام محذوفة من الكلام، فهي مقدرة في ذهن المتلقي.

وبناء على ما سبق، فإن "لو" تمثل أداة من أدوات الربط الدلالي في اللغة العربية، فهي تأخذ منحى مهماً في الدلالة من ناحية، إضافة إلى أن لها دوراً مهماً في التركيب والترابط الجملي في الكلام، فهي دون شك تربط بين جملتين بعلاقة مهمة تمثل علاقة الشرطية، فنحن حين نقول:

لو حضرَ زيدٌ لأكْرمتُهُ.

إن هذه الجملة في نواحيها التركيبية تتكون من جملتين، هما:

1 . حضر زيدٌ.

2 . أكرمتُ زيداً.

ولما دخلت "لو" على هاتين الجملتين جلبت معها أمراً جديداً، هذا الأمر يتمثل برباط العلاقة بين هاتين الجملتين، فارتبط إكرام زيد بحضوره، فعند حضور زيد، يكون له الإكرام، أما إذا لم يحضر زيد فلا إكرام له، يتبين لنا من خلال هذا الكلام العلاقة التركيبية بشكل واضح، ولقد استغنت اللغة عن تكرار "زيد" مرة ثانية في الجملة الثانية، فلا نقول مثلاً: "لو حضر زيدٌ لأكرمتُ زيداً"، وإنما استعاضت اللغة عن الاسم المنصوب المكرر في الجملة بالضمير، وسبب حدوث هذا التغير التركيبي عائد بشكل رئيس إلى دخول العنصر التحويلي "لو" على الجملة.

أما من ناحية الدلالة فإن الأمر واضح الاختلاف، وهو ما عبّر عنه العلماء بفائدة مجيء هذا الحرف، فهو يفيد الامتناع للامتناع، يعني ذلك أن زيداً إذا حضر فإننا سنُكرمه، أي أن إكرام زيد متحصّل في حال حصول مجيئه، وإن لم يحضر زيدٌ فلن

نُكرمه، بمعنى أن إكرام زيد منتفٍ عنه بانتفاء حضوره، وهو ما اختصره العلماء بقولهم: تفيد الامتناع للامتناع.

ومما سبق يتبين لنا الأثر الذي تحدثه "لو" في الناحيتين الرئيستين في اللغة: التركيب، والدلالة، وبناء على ما قلناه فإننا سننظر في دلالاتها الآيات الكريمة إستناداً إلى ما تفيده "لو" بالإضافة إلى ما تفيده "كان" مضافاً إليهما المعنى الأصلي للكلام، ومن هنا يتبين لنا طبيعة هذا التركيب المتميز عما سواه من التراكيب القرآنية.

1.3 "كان" المسبوقة بـ "لو" المسندة إلى الاسم الظاهر:

وكما رأينا في الفصل السابق؛ فإن هناك أشكالاً تركيبية تتميز بها كان في القرآن الكريم، ونحن تحت هذا العنوان سوف نتناول "كان" المسبوقة بـ "لو"، والمسندة إلى الاسم الظاهر، أي أن شكل الجملة التي سنتناولها سيكون على النحو الآتي:

لو + كان + اسم ظاهر.

وبناء على طبيعة هذا التركيب سنتحدث عن طبيعة الدلالة التي تأخذها "كان" في السياق الذي تكون فيه.

وفيما يأتي نبدأ الحديث عن الآيات القرآنية التي سنتناولها، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"[1].

يظهر لنا في الآية الكريمة التركيب الذي نحن بصدد دراسته في هذه الآية، وهو قوله سبحانه: لو كان لنا من الأمر شيءٌ، وظاهر لنا أن "كان" هاهنا مسندة إلى الاسم الظاهر "شيءٌ"، وهو اسم "كان" المتأخر عن خبرها، وبالتالي فإن "كان" هاهنا مسندة إلى اسم ظاهر.

---

[1]. سورة آل عمران، آية: 154.

ذكر الطبري أن هذه الآية الكريمة قد نزلت في بيان نفاق المنافقين، وأنهـــم قـــد أهمتهم أنفسهم، ولا يبحثون إلا عن راحتهم، حتى لو كان هذا الأمر على حساب أمر الله ورسوله، فهم لا يريدون إلا ما يُرضي أنفسهم فحسب، أما قولهم: لو كان لنا من الأمر شيء، فهو إخبار من الله تعالى عما في نفوس المنافقين لرسوله الكريم، يعني بذلك، أنّ هؤلاء المنافقين يقولون: لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا، ما خرجنا إليهم، ولا قُتل منا أحد في الموضع الذي قتلوا فيه بأحد[1].

وتذكر بعض المصادر أن هذه الآية الكريمة لم تنزل بالمنافقين عامة؛ بـــل هـــي مخصصة لعبد الله بن سلول[2]، أو لرجل من المنافقين يُقال له متعب ذكر ما ذكر من كلام يوم أحد، كان في مجمله أنهم لو كان الأمر بأيديهم ما خرجـــوا ليُقتَلـــوا فـــي موضع أحد يوم ذاك[3].

وقول المنافقين هذا يعنون به اعتراضهم على ما جرى من الخـــروج للمـــشركين يوم أحد، وأنهم لو لم يخرجوا لما قُتِلوا، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن ذلك كان أمراً محسوماً بقضاء الله وقدره، فهم لو لم يخرجوا للقتال، لأصابهم المـــوت حيثمـــا كانوا، ولخرجوا للقاء الموت، وهو ما عبر عنـــه القـــرآن بلفـــظ "مـــضاجعهم"، أي الموضع الذي يصيبهم فيه الموت[4].

وقوله تعالى: "لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا"، يمثل تفسيراً لمـــا ســـبق من قوله تعالى: "يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك"، فما يخفيه المنافقون في أنفسهم يتمثل بتذمرهم هذا من القتال يوم أحد، وبالتالي فإن القرآن في هذا الموضع قد فسر نفسه بنفسه[5].

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 7، ص: 322 ــ 323، وانظر: الزمخـــشري. الكـــشاف، ج: 1، ص: 426، وابن عطية. المحرر الوجيز، ج: 2، ص: 539، والنسفي. مدارك التنزيـــل، ج: 1، ص: 303.

[2]. المرجع نفسه، ص: 320.

[3]. ابن أبي حاتم. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ج: 3، ص: 794.

[4]. انظر: السمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 258.

[5]. السمعاني. تفسير القرآن، ج: 1، ص: 369.

ويقول أبو حيان مفسراً هذه الآية، ومبيّناً فيمن نزلت، وموضحاً ليس المقصود بالقتل المشركين كلهم، وإنما هم أشرافهم، يقول في ذلك: "قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ فِيمَا أَسْنَدَ عَنْهُ الطَّبَرِيُّ: وَاللَّهِ لِكَأَنِّي أَسْمَعُ قَوْلَ مُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ أَخِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَالنُّعَاسُ يَغْشَانِي مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلُمِ حِينَ قَالَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا. وَمُعَتِّبٌ هَذَا شَهِدَ بَدْرًا، ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ، وَكَانَ مَغْمُوصًا عَلَيْهِ بِالنِّفَاقِ. وَالْمَعْنَى: مَا قُتِلَ أَشْرَافُنَا وَخِيَارُنَا، وَهَذَا إِطْلَاقُ اسْمِ الْكُلِّ عَلَى الْبَعْضِ مَجَازًا"[1].

وبعد أن عرضنا للجو العام للآية الكريمة فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أثر "كان" وما سبقها في المعنى، فالدلالة كما نرى في النص مرتبط بجملتين اثنتين، هما:

1 . لهم من الأمر شيءٌ.

2 . قُتِلوا هاهنا.

فهاتان الجملتان قد حدث لهما تغيير في التركيب والدلالة بناء على ما دخل عليهما من عناصر تحويلية، فلقد دخلت "كان" على الجملة الأولى من الجملتين السابقتين، فصار معناها أنهم لم يملكوا من الأمر شيئاً، فكأن "كان" بدخولها هذا أصبحت تنفي عنهم إمكانية امتلاكهم لشيء من الأمر، فالأمر كله لله، غير أن "كان" لم تؤثر في معنى الجملة الثانية، رغم أنها على صلة وثيقة بها من ناحية الدلالة والتركيب.

أما دخول "لو" على الجملة الأولى فلم يكن بمعزل عن التأثير في الجملة الثانية، بل كان له تأثير عليها، فلقد كان معنى الجملة الثانية قبل دخول "لو": ما قتلوا، ولكن مع دخول "لو" أصبح المعنى معكوساً، فصار أنهم قُتِلوا في الموضع المشار إليه.

إن دخول "كان" على التركيب أكسبه الدلالة على الماضي، وهو أمر طبيعي، فلقد كان المشركون يتحدثون بذلك بعد انتهاء المعركة ــ أي أحد ــ فمن الطبيعي أن

---

[1]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 3، ص: 395.

يكون الكلام عنها بصيغة الماضي لا بصيغة الحاضر مثلاً، وبالتالي فإن العنصر الذي تحكم بالدلالة على الزمن الماضي في الآية الكريمة هو "كان".

أما دخول "لو" بدلالتها على الشرطية فقد أدى إلى اكتساب جوابها الدلالة على الزمن الماضي أيضاً من خلال اتصاله المباشر بالجملة التي دخلتها "كان" وبالتالي أصبح الحديث عنها بالماضي؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى على لسان معتّب: ما قُتلنا، ولم يكن الحديث بالزمن الحاضر.

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى: " قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا"[1].

يظهر لنا من خلال الآية الكريمة ما نحن بصدد دراسته من الأشكال التركيبية التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعالى، فالآية الكريمة محتوية على "كان" مسبوقة بـ "لو"، ولقد أسندت في هذه الآية إلى الاسم الظاهر، وهو في الآية "البحر".

وهذا الجزء من الآية الكريمة يبين لنا أن الله تعالى لو جعل من البحر مِداداً للكتابة، لانتهى البحر قبل أن تنتهي كلمات الله سبحانه وتعالى[2]، أما الطبري فيفسر هذه الآية الكريمة بقوله: " يقول عز ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (قُلْ) يا محمد: (لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا) للقلم الذي يُكتب به (لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) يقول: ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مددا، من قول القائل: جئتك مددا لك، وذلك من معنى الزيادة"[3].

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في بني يهود، فقد ذكر ابن عباس أنهم جاءوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: يا محمد تزعم أننا قد أوتينا الحكمة، وفي كتابك: "ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً"[4]، ثم يقول: "وما أُوتيتم من العلمِ إلا

---

[1]. سورة الكهف، آية: 109.

[2]. الأخفش. معاني القرآن، ج: 2، ص: 436.

[3]. الطبري. جامع البيان، ج: 18، ص: 133.

[4]. سورة البقرة، آية: 269.

قليلاً"[1]، فكيف يكون ذلك؟ فأنزل الله تعالى: "قل لــو كـــان البحــر مــداداً لكلمـــات ربي..."[2].

فالقصد من نزول هذه الآية فيما نظن أنه مهما أوتي الإنسان من علم فإن علمــه يعد قاصراً إذا ما قُورن بعلم الله تعالى، وإذا ما قيس بما لدى الله تعالى من كلمات، ومن ثَمَّ فإن الخير الكثير المرتبط بالحكمة ليس شيئاً أمام كلمات الله تعالى، ومن هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين الحالة المتفاوتة بين ما عند الناس من علم قليــل إذا ما قرناه بما عند الله تعالى من علم لا ينفد، ومهما كُتِبت كلمات الله تعالى ولو كـــان البحر مداداً لها لما انتهى كلام الله تعالى، فهذا هو التفاوت الحقيقي بين ما عند الناس من علم، وما عند الله سبحانه وتعالى من علم أيضاً.

فالآية الكريمة تناقش أمراً يختص بالذات الإلهية، فالله سبحانه وتعالى لا تنتهــي كلماته ولا تنفد معانيه، فإنّ متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها كمعلومـــات الحــقّ- سبحانه- ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته. والذي هو مخلوق لا يستوفى مـــا هـــو غير متناه- وإن كثر ذلك[3].

ويذكر الزمخشري أن "كلمات" جمع قلة، فلماذا أتت هاهنا مكان جمـــع الكثـــرة؟ والجواب عن ذلك أن كلمات الله تعالى وهو جمع قلة لا تفي به البحار، فكيــف لـــو كان جمع كثرة، أي كَلِم[4].

أما أبو حيان الأندلسي فيقول في تفسير هذه الآية: " قِيلَ سَبَبُ نُزُولِهَا أَنَّ الْيَهُــودَ قَالُوا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ تَزْعُمُ أَنَّكَ نَبِيُّ الْأُمَمِ كُلِّهَا وَمَبْعُوثٌ إِلَيْهَـــا، وَأَنَّكَ أُعْطِيتَ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنَ الْعِلْمِ وَأَنْتَ مُقَصِّرٌ قَدْ سُئِلْتَ عَنِ الرُّوحِ فَلَمْ تُجِبْ فِيهِ؟ فَنَزَلَتْ مُعْلِمَةً بِاتِّسَاعِ مَعْلُومَاتِ اللَّهِ وَأَنَّهَا غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ وَأَنَّ الْوُقُوفَ دُونَهَا لَــيْسَ بِبِدْعٍ وَلَا نُكْرٍ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِتَمْثِيلِ مَا يَسْتَكْثِرُونَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ. وَقِيلَ قَالَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ فِي كِتَابِكُمْ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ثُمَّ تَقْــرَءُونَ

---

[1]. سورة الإسراء، آية: 85.

[2]. الثعلبي. الكشف والبيان، ج: 6، ص: 202.

[3]. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 416.

[4]. الزمخشري. الكشاف، ج: 3، ص: 501.

وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، فَنَزَلَتْ يَعْنِي إِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ وَلَكِنَّهُ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ كَلِمَاتِ اللَّهِ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ أَيْ مَاءُ الْبَحْرِ مِداداً وَهُوَ مَا يُمَدُّ بِهِ الدَّوَاةُ مِنَ الْحِبْرِ، وَمَا يُمَدُّ بِهِ السِّرَاجُ مِنَ السَّلِيطِ. وَيُقَالُ: السَّمَاءُ مِدَادُ الْأَرْضِ لِكَلِماتِ رَبِّي أَيْ مَعَدُّ الْكُتُبِ كَلِمَاتُ رَبِّي وَهُوَ عِلْمُهُ وَحِكْمَتُهُ، وَكُتِبَ بِذَلِكَ الْمِدَادِ لَنَفِدَ الْبَحْرُ أَيْ فَنِيَ مَاؤُهُ الَّذِي هُوَ الْمِدَادُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ الْكَلِمَاتُ لِأَنَّ كَلِمَاتِهِ تَعَالَى لَا يُمْكِنُ نَفَادُهَا لِأَنَّهَا لَا تَتَنَاهَى وَالْبَحْرُ يَنْفَدُ لِأَنَّهُ مُتَنَاهٍ ضَرُورَةً، وَلَيْسَ بِبِدْعٍ أَنْ أَجْهَلَ شَيْئًا مِنْ مَعْلُومَاتِهِ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ لَمْ أَعْلَمْ إِلَّا مَا أُوحِيَ إِلَيَّ بِهِ وَأُعْلِمْتُ"[1].

لقد دخلت "كان" أولاً على تركيب هذا الكلام، فلقد كانت الجملة تتمثل بما يلي:

البحر مدادٌ لكلمات ربي.

ثم دخلت "كان" على الجملة، غير أن "كان" في دخولها هذا لم تعنِ أبداً التحول من حال إلى حال أخرى، بل هي حالة من الثبوت، فكأن معنى "كان" الداخلة على الآية الكريمة استقرار الحال على ما هو عليه، وعدم التغير في حال من الأحوال، فالبحر لو حصل أن كان مداداً لكلمات الله لانتهى البحر قبل أن تنتهي كلمات الله سبحانه وتعالى.

ثم دخلت "لو" على التركيب، لتفيد في أساسها الشرط، فالشرط يتمثل في إن حصل وكان البحر مداداً لكلمات الله، فإن هذا البحر سوف ينفد قبل أن تنفد كلمات الله سبحانه وتعالى، ولكننا نقف بشيء من التأمل أمام الفائدة التي تفيدها "لو" في هذا الموضع، هل هو الامتناع للامتناع؟!

لو كان الأمر على ذلك لكان معنى الآية: امتناع انتهاء البحر لامتناعه أن يكون مداداً لكلمات الله تعالى، وهذا ما يجعلنا نتأمل، فهل يمكن أن ينتهي البحر؟

إن الذي أثر في المعنى الشرطي بشكل كبير هي "كان"، فلقد أفادت "كان" فائدة كبيرة في المعنى، ففي الدلالة إذا تحصل أن يكون البحر مداداً لكلمات الله حتى تُكتَب فيه، لو حصل ذلك فإن البحر سينتهي قبل أن تنتهي كلمات الله تعالى، ومن هنا فإن "كان" أثرت تأثيراً كبيراً في صياغة المعنى والدلالة، فالأولى أن تأتي "كان" في التركيب الشعري، ثم تأتي بعد ذلك "لو".

---

[1]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 7، ص: 233.

ونكتفي بعرض مثالين اثنين عن هذا القسم من أقسام "كان" المسبوقة بـــ "لو" في كتاب الله تعالى، وفيما يأتي ننتقل إلى قسم جديد نبين فيه الأثر التركيبي لـــ "كـــان" وما دخل عليها في صياغة التركيب والدلالة.

2.3 "لو كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المستترة:

وفي هذا الشكل التركيبي الجديد لـــ "كان" نجدها مسندة إلـــى ضـــمائر الرفـــع المستترة، أي أن شكلها التركيبي يكون على هذا النحو:

لو + كان + ضمير رفع مستتر (هو أو هي)

وتحافظ "كان" في هذه الحالة على الشكل الماضي لها، فلا تكون بشكل الحاضر، فنحن سنقوم بدراسة الشكل المضارع لها في موضع لاحق من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ"[1].

يظهر لنا من خلال الآية الكريمة الشكل التركيبي الذي نحن في صدد دراســـته، وهو مجيء "كان" مسبوقة بـــ "لو"، وهي مسندة إلى ضمير مستتر تقديره "هو"[2].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: " يقول جل ثناؤه للنبي صلى الله عليه وسلم، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلُّف عنه حين خرج إلى تبوك، فأذن لهم: لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك في ترك الخروج معـــك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه (عرضا قريبا) ، يقول: غنيمـــة حاضـــرة (وســـفرًا قاصدًا) ، يقول: وموضعًا قريبًا سهلا (لاتبعوك) ، ونفروا معـــك إليهمـــا، ولكنـــك استنفرتهم إلى موضع بعيد، وكلفتهم سفرًا شاقًّا عليهم، لأنك استنهضتهم فـــي وقـــت الحرّ، وزمان القَيْظ وحين الحاجة إلى الكِنّ (وسيحلفون بالله لو اســـتطعنا لخرجنـــا معكم) ، يقول تعالى ذكره: وسيحلف لك، يا محمد، هؤلاء المـــستأذنوك فـــي تـــرك

---

[1]. سورة التوبة، آية: 42.

[2]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 4، ص: 104.

الخروج معك، اعتذارًا منهم إليك بالباطل، لتقبل منهم عذرهم، وتأذن لهم في التخلّف عنك، بالله كاذبين"[1].

إن هذه الآية الكريمة كما نرى تتحدث عن المنافقين، وكيف أنهم طلبوا الأعــذار من النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أجل التخلف عن القتال، فيذكر الله تعالى أنه لو كان الاستنفار من أجل سفر قريب، أو غنيمة سهلة لاندفعوا للخروج مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ غير أن الشقة بعدت عليهم، والشقة: هي الأرض الصعبة[2].

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في غزوة تبوك، وبسبب تَخَلُّفِ المنافقين عن السفر مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى القتال، وكانت أعذارهم في ذلك واهيــة، ولقد بيّن الله تعالى ما يجول في ضمائرهم، فهم لو دعاهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى سفر قريب، وغنيمة حاصلة لخرجوا، ليس من أجل الجهاد ورضــا الله تعالى، بل من أجل الغنائم والرياء في قتالهم[3].

أما أبو حيان فيقول: "أي لو كان ما دُعُوا إِلَيْهِ غُنْمًا قَرِيبًا سَهْلَ الْمَنَــالِ، وَسَــفَرًا قَاصِدًا وَسَطًا مُقَارِبًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي قِصَّةِ تَبُوكَ حِينَ اسْــتَنْفَرَ الْمُــؤْمِنِينَ فَنَفَــرُوا، وَاعْتَذَرَ مِنْهُمْ فَرِيقٌ لِأَصْحَابِهِ، لَا سِيَّمَا مِنَ الْقَبَائِلِ الْمُجَاوِرَةِ للمدينة. وليس قَوْلُهُ: يَــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ خِطَابًا لِلْمُنَافِقِينَ خَاصَّةً، بَلْ هُوَ عَــامٌّ. وَاعْتَــذَرَ الْمُنَــافِقُونَ بِأَعْذَارٍ كَاذِبَةٍ، فَابْتَدَأَ تَعَالَى بِذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ وكشف ضمائرهم"[4].

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 14، ص: 271، وانظر: الماوردي. النكت والعيون، ج: 2، ص: 367، والقشيري. لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 29، والزمخشري. الكــشاف، ج: 2، ص: 273، والغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (د.ت). ملاك التأويل القــاطع بــذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمــد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ص: 229.

[2]. انظر: الماوردي. النكت والعيون، ج: 2، ص: 367.

[3]. ابن عطية. المحرر الوجيز، ج: 3، ص: 37 ــ 38.

[4]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 5، ص: 423 ــ 424.

ويظهر لنا من خلال نص الآية الكريمة أن "كان" لها تأثير كبير في المعنى، فلقد ارتبطت دلالة الآية الكريمة بها بشكل واضح جداً منذ البداية، ولم يكن تأثير "لو" إلا بعد أن أثرت "كان" في نص الآية الكريمة، فالمعنى مكون من جملتين اثنتين هما:

1 . هو عرض قريب.

2 . اتبعوك.

ثم دخلت "كان" على الجملة الأولى فحسب، وأثرت في معناها، فأصبحت الجملة: كان عرضاً قريباً، ولم تؤثر "كان" بشكل مباشر في الجملة الثانية المكونة للمعنى، وهي: اتبعوك.

ثم دخلت أداة الشرط على الجملة الأولى، وأثرت بشكل كبير في المعنى، فأصبحت الدلالة ترتبط بالشرط، فلو أن السفر كان سهلاً، والمكان كان قريباً لاتبع المنافقون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم عللت الآية الكريمة سبب امتناع الشرط حتى يمتنع الجواب، فقال تعالى: "ولكن بعدت عليهم الشقة"، هذا يعني أن سبب الامتناع في الشرط يرتبط ببعد السفر، ومشقة الطريق، فيظهر لنا بوضوح سبب الامتناع للامتناع الذي تفيده "لو" في الكلام.

وفيما يأتي ننتقل إلى موضع جديد آخر من المواضع التي نحن بصدد دراستها في هذه الدراسة، حيث يقول سبحانه وتعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ"[1].

نرى في الآية الكريمة بوضوح مجيء اسم "كان" الذي هي مسندة إليه ضميراً مستتراً، حيث تركبت الجملة مما يأتي:

لو + كان + ضمير مستتر.

ولقد لاحظنا أن هذا الشكل التركيبي قليل الورود في كتاب الله تعالى، إذ لم نعثر إلا على عدد قليل جداً من الأمثلة.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: " قد قال ذلك قائلون من الناس، كانوا أعزّ منهم في الجاهلية، قالوا: والله لو كان هذا خيرا ما سبقنا إليه بنو

---

[1]. سورة الأحقاف، آية: 11.

فلان وبنو فلان، يختص الله برحمته من يشاء، ويكرم الله برحمتــه مــن يشاء، تبارك وتعالى"[1].

ويبين ابن عطية في تفسيره من قال هذه العبارة من المشركين والكفار، وفــيمن قيلت من المؤمنين، إذ يقول: " وقوله تعالى: وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كــانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ قال قتادة: هي مقالة قريش، يريدون عمــارا وصــهيبا وبــلالا ونحوهم ممن أسلم وآمن بالنبي عليه السلام. وقال الزجاج والكلبي وغيره: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، قالت ذلك حين أسلمت غفــار ومزينــة وجهينة. وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم"[2].

ونلحظ من خلال نص الآية الكريمة وجود التركيب المخــصوص، فلقــد تكــون النص بمعناه من جملتين أساسيتين هما:

1 . هو خيرٌ. (يعني الأمر أمر الدين).

2 . سبقوا إليه.

فلقد دخلت "كان" على الجملة الأولى فأصبحت تدل على حال ذلك الأمر، وهــو الدين، وليس القصد من "كان" الدلالة على الزمن الماضي، فأمر الدين كلــه خيــر، غير أن هذه المقولة أوردها الله سبحانه وتعالى على لسان الكافرين، فهم يــرون أن أمر الدين ليس بخير، كما يظنون هم، ولو كان هذا الأمر خيراً لكانوا أولى بالــسبق إليه من غيرهم من أمثال الذين آمنوا بدين الإسلام، وهو ما تضمنته الآية في جملتها الثانية: سبقونا إليه".

إذن فإن "كان" في هذه الآية لا تدل على التحول والتغير من حال إلى حال فيمــا يتعلق بالخير المنوط بأمر الدين، بل هي حالة من الثبات المرتبطة بالإسلام، فالكفار في مقالتهم هذه لم يعنوا أن أمر الدين لم يكن خيراً ثم صار أمره خيراً، بل هم يرون أن أمر الدين كان ولم يزل ليس خيراً، حاشى أن يكون ذلك.

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 22، ص: 109، وانظر: الماوردي. النكت والعيون، ج: 5، ص: 275، والزمخشري. الكشاف، ج: 4، ص: 300.

[2]. ابن عطية. المحرر الوجيز، ج: 5، ص: 95، وانظر: أبو حيان. البحر المحيط، ج: 9، ص: 437.

ثم دخلت "لو" على الجملتين لتفيد معنى الشرط المرتبط بها، فهي تمثل عنصراً رابطاَ بين الجملتين الأولى والثانية، فلو كان أمر الدين خيراً، لسبق بعض الناس بعضهم في ذلك، فلما امتنع خير الدين ــ في ظن الكفار ــ امتنع سبقهم له، ففائدة الامتناع للامتناع واضحة الظهور في نص الآية القرآنية الكريمة.

لقد تميز هذا الشكل التركيبي في كتاب الله تعالى بالندرة، فلا نجد كثيراً من الآيات القرآنية التي تحتوي هذا الشكل التركيبي لــ "كان" وما يقع في حيزها من ناحية ما يسبقها وما يلحقها، والسبب عائد في ظننا إلى أن الشرط عادة يحتاج إلى وضوح في تركيبه، ومن هنا فقد جاءت الأنماط التركيبية المشابهة لهذا النمط قليلة في كتاب الله تعالى.

ونلحظ كذلك أن أغلب الآيات التي كان فيها تركيب "كان" مسبوقاً بــ "لو" تدخل ضمن الإطار العقدي، وتتحدث عن قدرة الله تعالى، أو عن الدين، أو عن المنافقين، فهذه الأشياء كلها تدخل ضمن الأطر العقدية في الدين الإسلامي، ولا بد أن يكون هناك رابط بين مجيء "كان" مع هذه المعاني، فنحن نظن أن دلالة "كان" على الأزمنة المختلفة، وقدرتها على التحول من الماضي إلى المضارع، وتغير دلالتها بشكل كبير جداً هو الأمر الذي جعل ورودها مع القضايا العقدية أكثر من غيرها، فهي تمثل حالة من الشمول الزمني إن صح لنا التعبير.

ولقد لاحظنا أنه لم ترد في كتاب الله تعالى حالة تركيبية تتمثل بأن تأتي "كان" مسبوقة بــ "لو" ومسندة إلى ضمير المفردة الغائبة، بل كان المفرد المذكر الغائب هو المثال لدينا في الحالات السابقة، ولم نجد أمثلة على الشكل الثاني التركيبي لهذه الجملة التركيبية.

وبعد أن عرضنا شيئاً من الأمثلة التي أحصيناها بخصوص "كان" المسندة إلى ضمير رفع مستتر، والمسبوقة بــ "لو" الشرطية في كتاب الله تعالى فإننا ننتقل إلى حالة تركيبية أخرى داخلة ضمن إطار هذا الفصل.

3.3 "لو كان" المسندة إلى ضمائر الرفع المتصلة:

أما هذا الشكل التركيبي لـــ "كان" في كتاب الله تعالى فيرد بشكل كبير، إذ إننـــا نجده ظاهراً في أغلب الآيات القرآنية التي تأتي على نسق مسبوق بـــ "لو"، والشكل التركيبي العام لهذه الجمل يتمثل بما يلي:

لو + كان + أحد ضمائر الرفع المتصلة.

وضمائر الرفع المتصلة كما نعلم هي تـــاء المـــتكلم، وتـــاء المخاطـــب، وتـــاء المخاطبة، وضمير الاثنين المخاطبين، وجماعة المخاطبين، وجماعـــة المخاطبـــات، وضمير "نا" للمتكلمين الفاعل، وواو جماعة الغائبين، وألف المثنى والتي لم نجد لها أمثلة في القرآن الكريم، فيما يتعلق بالشكل التركيبي الذي نحن بصدد دراسته، ونون النسوة، هذه هي الحالات التي يحتمل أن تأتي عليها الجملة المتركبة من العناصـــر التي بيّناها من قبل.

وفيما هو آتٍ ننتقل للحديث عن بعض الآيات القرآنية التي تحتوي هـــذا الـــشكل التركيبي، ونبدأ الحديث عن قوله تعالى: " وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُـــسَهُمْ لَـــوْ كَـــانُوا يَعْلَمُونَ"[1].

ويظهر لنا في الآية القرآنية الكريمة الشكل التركيبي الذي نخصه بالبحث في هذا الجزء من هذه الدراسة، وهو مجيء "كان" مسبوقة بـــ "لو"، ومسندة إلى ضمير رفع متصل، وضمير الرفع هاهنا يتمثل بواو الجماعة.

والآية الكريمة تحتوي فعلاً يدل دلالة على التضاد، فالله سبحانه قال: شروا، ولم يقل: باعوا، وبالتالي فإن "شروا" هاهنا بمعنى باعوا، فهذا الأمر مدعاة للتقبـــيح مـــا باعوا به أنفسهم من تعلم السحر، واكتساب غضب الله سبحانه وتعالى، والبعد عـــن رضوانه، فهم بهذا الفعل باعوا أنفسهم[2].

---

[1]. سورة البقرة آية، 102.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 4، ص: 455.

أما الماوردي فيذكر أن قوله تعالى: "ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" فيه تأويلان: أحدهما: يعني ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر في تعليمه وفعله. والثاني: من إضافتهم السحر إلى سليمان ، وتحريضهم على الكذب[1].

أما الدرويش فيذكر في إعرابه أن "لو" في هذه الآية شرطية، في حين أن "كانوا": كان واسمها، وجملة "يعلمون" خبرها، وجواب "لو" محذوف تقديره: أي لما أقدموا على اجتراحه من عمل مغاير[2].

ولكي نتبين الأثر الذي أحدثته هذه العناصر في التأثير على دلالة هذه الجملة، فإنه يتوجب علينا أن نبحث في كل عنصر من هذه العناصر على حدة، وأول هذه العناصر يتمثل بـ "لو" إذ إننا نعلم أنها تفيد الامتناع للامتناع، وهذا يعني أن امتنع عدم إقدامهم على ما يغضب الله، لامتناع علمهم بهذا الأمر، ولكن الذين أقدموا على الفعل ربما كانوا يعلمون بأن هذا الأمر يغضب الله تعالى، غير أنهم عناداً منهم واستكباراً على أمر الله أقدموا على هذا الفعل، وبالتالي فإن الامتناع في هذه الحالة يكون ناتجاً من عدم علمهم بما أعده الله تعالى لهم من عذاب أليم، وهكذا يتبين لنا الأثر الذي أحدثته "لو" في الناحية الدلالية للآية الكريمة.

أما "كان" فإن لها اثراً متمثلاً بأنها دلت على المرحلة الأولى التي تسبق عذاب الله تعالى، أي بعبارة أخرى فإنها تدل على مرحلة اقتراف الذنب الذي سيعاقب عليه الله تعالى عقاباً شديداً، ومن هنا يتبين لنا الأثر الدلالي لهذا العنصر الموجود في الآية القرآنية الكريمة.

أما بالنسبة للخبر ـ خبر كان ـ فإنه يتبادر إلى أذهاننا قبل كل شيء السؤال الآتي: لماذا جاء الخبر هاهنا جملة فعلية فعلها مضارع؟

يدل الفعل المضارع في اللغة على التجدد والحدوث مرة بعد مرة، وبالتالي فإن هذه الدلالة لا بد أن نُسبغها على دلالة الآية الكريمة، فيكون دلالة الفعل المضارع هنا إصرار المقترفين للذنب على فعله مرة بعد مرة، وفي كل زمان، ومع توالي

[1]. الماوردي. النكت والعيون، ج: 1، ص: 169، وانظر: القشيري. لطائف الإشارات، ج: 1، ص: 110، وز

[2]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 1، ص: 159.

الأزمنة، وبالتالي فهم في حياتهم الدنيا يكررون الفعل، ولو أنهم يعلمون ما خبّأه الله تعالى لهم من عذاب شديد ما كانوا يقترفون هذا الذنب العظيم.

وفيما يأتي ننتقل إلى آية قرآنية أخرى نبين فيها الحالة التركيبية التي نحن في صدد دراستها، محاولين الكشف عن الأوجه الدلالية المستفادة من هذه الأشكال التركيبية، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: "وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصْحابِ السَّعِيْرِ"[1].

يتضح لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة الشكل التركيبي المخصوص، والذي نحن بدراسته هاهنا، وهو ما يمكننا أن نمثله على النحو الآتي:

لو + كان + نا المتكلمين + خبر كان.

وهي ــ أي كان ــ مسندة في هذه الآية إلى أحد ضمائر الرفع المتصلة.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: " يقول تعالى ذكره: وقال الفوج الذي ألقي في النار للخزنة: (لَوْ كُنَّا) في الدنيا (نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ) من النذر ما جاءونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه (مَا كُنَّا) اليوم (فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) يعني: أهل النار"[2].

إذن فإن الحالة التي تناقشها الآية الكريمة تتمثل بكلام الكافرين في نار جهنم، وأنهم ينعون على أنفسهم عدم سماعهم واتباعهم لما جاء به الرسل، ومن هنا فإن الزمن في هذه الجملة متأثر أكثر ما هو متأثر بالزمن الماضي، وهو الزمن الذي اكتسبته الجملة من "كان".

أما السمعاني في تفسيره فهو يرى أن المعنى المراد من هذه الآية الكريمة أن الكفار لم ينتفعوا بما لديهم من أسماع وأبصار، وأنهم لم يحكموا عقولهم فيما جاءهم من الحق، يقول: " وَالْمعْنَى: أَنا لم نسْمع الْحق وَلم نعقله أَي: لم ننتفع بأسماعنا وعقولنا"[3].

---

[1]. سورة الملك، آية: 10.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 23، ص: 510، وانظر: الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 5، ص: 199.

[3]. السمعاني. تفسير القرآن، ج: 6، ص: 10.

ولقد ذكر الله تعالى السمع والعقل، والعقل ليس مقصوداً به الفهم فحسب، وإنما يقصد به الثبات في القلب، فالسمع طريق من الطرق التي تؤدي إلى القلب، ومن خلالها يستطيع الإنسان أن يفقه بقلبه، ومن هنا قال تعالى: "إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسؤولاً"[1]، فالسمع والبصر طريقان إلى القلب، وحقيقة السؤال عنهما سؤال عن القلب وليس عنهما نفسهما[2].

فهذه المعاني المنوطة بالآية القرآنية الكريمة، ولقد أوردناها مجملة فيما سبق، غير أننا لا بد لنا من أن نفصل القول في كل ركن من أركان هذا التركيب، ونرى ما الذي أفاده كل بنفسه على حده.

فأول ما يطالعنا في هذا التركيب أداة "لو" وهي شرطية كما نعلم، فقد امتنع خروج الكفار من نار جهنم، وامتنع دخولهم في الجنة بسبب امتناع السمع والعقلان عندهم في حياتهم الدنيا، وبهذا الكلام يتضح لنا الأثر الذي أحدثته "لو" في تركيب ودلالتها الآية الكريمة.

أما "كنا" وهي مكونة من "كان + نا (للمتكلمين)"، فلقد أفادت الدلالة بنقلها من صفة الحاضر التي يسردها لنا القرآن الكريم حين يقولها الكافرون في نار جهنم، إلى الزمن الماضي الذي يتحدثون عنه في حياتهم الدنيا، فلقد جعلت كان" من زمن الجملة زمناً ماضياً، في حين أن خبرها كان فعلاً مضارعاً.

ومجيء الخبر فعلاً مضارعاً أعطى صفة استمرار الكافرين في عدم سماعهم وعدم عقلانيتهم في حياتهم الدنيا، فالفعل يفيد التكرار مرة بعد مرة، ومن هنا فإنه يتبين لنا أن هذا الفعل جاء دليلاً على عناد الكافرين، واستكبارهم على أمر الله تعالى، فلذلك كان الفعل بالصيغة المضارعة.

ولو افترضنا أن خبر "كان" في الآية السابقة كان فعلاً ماضياً، فإن الجملة تكون على هذا النحو: لو كنا سمعنا وعقلنا، فإن هذه الجملة لا تفيد التكرار والحدوث للفعل

---

1. سورة الإسراء، آية: 36.

2. الرازي. مفاتيح الغيب، ج: 24، ص: 530، وانظر: النعماني، أبو حفص عمر بن علي (1998م). اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان، الطبعة الأولى ج: 15، ص: 80.

كما أفاده الفعل المضارع، وبالتالي فإن ذلك يقود إلى عدم إصرار الكافرين على خطئهم حتى آل بهم المآل إلى جهنم وبئس المصير.

وهكذا يتبين لنا الأثر الذي أحدثه كل عنصر من هذه العناصر التركيبية في صياغة المعنى، وإيجاد الدلالة العظيمة للآية القرآنية الكريمة.

وفيما يأتي ننتقل للحديث عن آية قرآنية أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"[1].

يتضح لنا في بداية نص الآية الكريمة التركيب المخصوص الذي نحن في صدد دراسته، والذي يمكننا أن نوضحه على النحو الآتي:

لو + كان + مسندة إلى ضمير رفع + خبر "كان" منصوباً.

هذه الأركان التي تمثل الحالة التركيبية التي نحن في صدد دراستها في هذا الجزء من الدراسة.

يقول الطبري في تفسير هذا الجزء من الآية الكريمة: "وأما قوله:"ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك"، فإنه يعني بـ"الفظ" الجافي، وبـ"الغليظ القلب"، القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته صلى الله عليه وسلم"[2].

فالمعنى يرتبط بالرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث إن الله تعالى أوجد له صفات تجعله محبوباً لدى الناس، وتجعل الناس راغبين في البقاء معه، وهي الصفات التي تتعلق بتمام خُلُقه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي قال في وصفه جل ثناؤه: "بالمؤمنين رؤوف رحيم"[3].

---

[1]. سورة آل عمران، آية: 159.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 7، ص: 341، وانظر: السمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 260، والماوردي. النكت والعيون، ج: 1، ص: 433، وابن عطية. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج: 3، ص: 60، و الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (1422هـ). زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى ، ج: 1، ص: 339.

[3]. سورة التوبة، آية: 128.

ويبين لنا أبو حيان أن سبب هذا اللين إنما كان لئلا يلوم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصحابه حين تفرقوا عنه، ولو حصل ذلك – لا قدر الله – لكان ذلك الأمر سبباً في تفرق كلمة الإسلام، وتشتت شمله، يقول أبو حيان في ذلك: "بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَةَ اللِّينِ هِيَ الْمَحَبَّةُ، وَالِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ. وَأَنَّ خِلَافَهَا مِنَ الْجَفْوَةِ وَالْخُشُونَةِ مُؤَدٍّ إِلَى التَّفَرُّقِ، وَالْمَعْنَى: لَوْ شَافَهْتَهُمْ بِالْمَلَامَةِ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْفِرَارِ لِتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِكَ هَيْبَةً مِنْكَ وَحَيَاءً، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِتَفَرُّقِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَضَعْفِ مَادَّتِهِ، وَإِطْمَاعًا لِلْعَدُوِّ وَاللِّينِ وَالرِّفْقِ، فَيَكُونُ فِيمَا لَمْ يُفْضِ إِلَى إِهْمَالِ حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى"[1].

وحين ننظر في الآية القرآنية الكريمة نجد أن تركيبها تركيب رصين متين، يؤدي كل ركن فيها دوره بأكمل وجه، ولا يُستغنى عن ركن منها، ولا يُستبدَل ذلك الركن غيره من البدائل من الألفاظ المختلفة، فلقد مثّلت هذه الآية الكريمة الخطاب الرباني المباشر لرسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – هذا الخطاب الذي تمثل بأن بيّن الله سبحانه وتعالى فيه صفة من صفات الرسول الكريم، وهي صفة اللين، وبيّن سبحانه أن ضد هذه الصفة يفضي إلى نتيجة سلبية في طبيعة علاقة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع الصحابة الكرام من حوله، هذا الخطاب الرباني إنما تمثل لنا من خلال المسند إلى "كان" وهو ضمير المفرد المخاطب، إذ يمثل هذا الضمير ما يُضمر تحته من ذات، والذات هاهنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبالتالي أظهر لنا هذا الضمير حالة الخطاب التي تقصدها الآية الكريمة.

ولم تكن "لو" مجرد كلمة وُضِعت هكذا، وإنما جاءت لإنجاز الشرط المنصوص عليه في الآية، فلو كان الرسول فظاً غليظاً في تعامله مع أصحابه، لتركوه، وانفضوا من حوله، فلقد أدت "لو" هاهنا الوظيفة الشرطية المنوطة بها دون غيرها من كلمات الآية الكريمة.

أما "كان" فلم تقتصر دلالتها في الآية الكريمة على الدلالة الزمنية، وإنما خرجت من دلالتها الزمنية إلى إثبات صفة عدم اتصاف الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالغلظة والفظاظة، وأثبتت له صفة اللين والرحمة، في حين أنها نفت عنه ما ضدها

---

[1]. أبو حيان. تفسير البحر المحيط، ج: 3، ص: 408.

من الصفات، وهي بالتالي تكون ذات عملين في الجملة، ما عدا عملهـــا التركيبـــي النحوي، فيكون بذلك دورها متمثلاً بثلاثة أمور هي:

1 . العمل النحوي المتمثل بنصب الخبر وإبقاء المبتدأ مرفوعاً.

2 . عمل فلسفي زمني، يتعلق بنقل زمن الكلام من الحال إلى الماضي.

3 . عمل دلالي تمثل بنفي صفة الغلظة والفظاظة عن الرسول الكريم ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ وإثبات صفة اللين والرحمة له.

ومن هنا يظهر لنا الأثر الكبير الذي تحدثه "كان" في سياق الكـــلام فـــي الآيـــة القرآنية الكريمة.

وننتقل الآن للحديث عن آية قرآنية أخرى، يظهر لنا فيها التركيب المقصود في هذا الجزء من هذه الدراسة، حيث يقول سبحانه وتعالى: " يَغْفِرْ لَكُـــمْ مِـــنْ ذُنُـــوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[1].

يظهر لنا في الآية الكريمة الحالة التركيبية التي نقصدها في هذا الفصل، وهـــي مجيء "كان" مسبوقة بـــ "لو" مسندة إلى ضمير رفع، وهو ضمير خطاب الجماعـــة كما نرى، ويمكننا أن نوضح الشكل التركيبي لهذه الجملة في الآية الكريمـــة علـــى النحو الآتي:

لو + كان + ضمير متصل لخطاب الجماعة + خبر جملة فعلية فعلها مضارع.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: " إن أجل الله الذي قد كتبه على خلقه في أمّ الكتاب إذا جاء عنده لا يؤخر عن ميقاته، فينظر بعده (لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يقول: لو علمتم أن ذلك كذلك، لأنبتم إلى طاعة ربكم"[2].

فبناء على كلام الطبري هذا يمكننا أن نستنتج أن جواب الشرط في الآية الكريمة محذوف، والتقدير فيه: لأنبتم إلى عبادة ربكم، والتقدير محذوف للعلم به، فما كـــان من إنسان جاحد بالله، فلو أنه يعلم أن أجل الله سيصيبه، ثم سيحاسب على كـــل مـــا

---

[1]. سورة نوح، آية: 4.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 23، ص: 631، وانظر: السمرقندي. بحر العلـــوم، ج: 3، ص: 499، والثعلبي. الكشف والبيان، ج: 10، ص: 44، والماوردي. النكـــت والعيـــون، ج: 6، ص: 99.

اقترف من أعمال سيئة، وسيدخل النار، لأناب إلى ربه، واتخذ طريق الخير في حياته، ومن هنا كان جواب الشرط محذوفاً.

ويبين لنا الرازي الغرض من قوله تعالى: "لو كنتم تعلمون"، فيقول: "الْغَرَضُ الزَّجْرُ عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا، وَعَنِ التَّهَالُكِ عَلَيْهَا وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الدِّينِ بِسَبَبِ حُبِّهَا، يَعْنِي أَنَّ غُلُوَّهُمْ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطَلَبِ لَذَّاتِهَا بَلَغَ إِلَى حَيْثُ يَدُلُّ على أنهم شاكون في الموت"[1].

أما أبو حيان فيبين لنا أن جواب "لو" في هذه الآية محذوف، حيث يقول: "وَجَوَابُ لَوْ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، لَبَادَرْتُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ وَطَاعَتِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْهُ تَعَالَى. وَلَمَّا لَمْ يُجِيبُوهُ وَآذَوْهُ، شَكَا إِلَى رَبِّهِ شَكْوَى مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِحَالِهِ مَعَ قَوْمِهِ لَمَّا أُمِرَ بِالْإِنْذَارِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِمْ"[2].

وبعد أن عرضنا لبعض الكلام على هذه الآية يجدر بنا أن نوضح الأمور التي تتعلق بالتركيب في هذه الآية الكريمة، إذ إن هذه الآية قد احتوت على التركيب المتضمن لـ "كان" المسبوقة بـ "لو"، ومن هنا كان موضعها في الدراسة، ولقد أسندت "كان" إلى ضمير الرفع "تم" وهو لجماعة المخاطبين، ولقد جاء الكلام في الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام، والخطاب المباشر يدلنا على قرب سيدنا نوح من المخاطبين، سواء أكان هذا القرب معنوياً أم مادياً، فهو قريب منهم في كل وقت وزمان، وبالتالي كان الخطاب بضمير المخاطبين، وهو قريب منهم أيضاً بحكم أنه واحد من قومه، وبالتالي فهو قريب منهم، لذا حسُن الخطاب بضمير المخاطبين للدلالة على القرب.

أما دخول "لو" في الآية الكريمة على الجملة المصدرة بـ "كان" فلقد أثر بطبيعته الشرط، فلو تفيد الشرط والامتناع للامتناع، ولقد كان جوابها محذوفاً كما أسلفنا، وسبب الحذف في ظننا عائد إلى أن الجواب معروف لدى السامع، فلو كان الإنسان يعلم بأن الله لا يخلف وعده؛ لأقبل على عبادته كي يتقي النار ويدخل الجنة، وبالتالي يأخذ بوعد الله سبحانه وتعالى.

---

[1]. الرازي. مفاتيح الغيب، ج: 30، ص: 650.

[2]. أبو حيان. البحر المحيط، ج: 10، ص: 281.

أما "كان" فلقد نقلت الجملة إلى الزمن الماضي، رغم أن نوحاً كان يخاطب قومه مباشرة، وهذا يقودنا إلى أن نفترض أن هذا الكلام من نوح جاء بعد زمن ليس بقليل في دعاء قومه لعبادة الله تعالى، ولما رآهم لا يستجيبون له، جاء بالحديث عن الزمن الماضي المتمثل بـــ "كان"، فكأنه يريد القول أنكم لو استجبتم لي من قبل لكان خيراً لكم.

أما الخبر المضارع في الآية الكريمة فهو يدل على إصرار قوم نوح ومعانـــدتهم لدعوته لهم بعبادة الله وحده؛ لأن المضارع يدل على الاســـتمرار، غيـــر أن هـــذا الاستمرار يحمل صفة الماضي المتمثلة بـــ "كان"، فالدلالة إذن تقودنا إلى اســـتمرار عناد قوم نوح منذ أن بدأ نوح دعوتهم للإيمان بالله وحده، وبقائها على ما هي عليـــه إلى زمن كلامه هذا معهم.

وبعد أن انتهينا من تحليل الآيات الكريمات اللواتي كانت فيهن "كـــان" ماضـــية، فيحسن بنا أن نبدأ الحديث عن الآيات التي تأتي فيها "كان" مضارعة، غير أننا لـــم نعثر في كتاب الله تعالى على آية واحدة تحمل الشكل التركيبي الآتي:

لو + يكون + مسند إليه.

فربما كان السر راجعاً إلى أن "لو" تفيد الزمن الماضي، فإذا ما دخلت على فعـــل مضارع تغيرت فائدتها، وأصبحت الدلالة فيها شيء من التناقض، ومن هنا لم تدخل "لو" على المضارع في كتاب الله تعالى.

وبعد أن انتهينا من عرض هذا الفصل يجمل بنا أن نشير إلى بعض النتائج التـــي توصلنا إليها في دراستنا هذه.

يأخذ الشكل التركيبي لـــ "كان" المسبوقة بـــ "لو" في كتاب الله تعالى مكاناً واسعاً، حيث نجد أمثلة كثيرة عليه، غير أن أغلب الأمثلة التي وردت، والتي قمنا بتحليلهـــا كانت تتعلق بالأمور العقائدية، والقضايا التي تتعلق بالعقيدة بشكل مباشر، وهو أمـــر مثّل السمة العامة لهذا التركيب.

تأتي "لو كان" في آيات كثيرة مخبر عنها بفعل مضارع، وهي في هذه الحالة تدل على الاستمرار في الحدث خلال الزمن الماضي، وخصوصاً ما جـــاء علـــى هـــذا التركيب متعلقاً ببعض الذنوب التي يرتكبها الكافرون في الـــدنيا، فمجـــيء الفعـــل

المضارع، دال على إصرار هؤلاء الكافرين على تلك الذنوب، واســـتمرارهم فـــي اقترافها، وامتناعهم عن تركها.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يكون قد وفقني إلى ما فيه الخير والصلاح، وأن يكون قد قادني إلى قول صحيح فصيح، وأن يبعدني عن الزلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفصل الرابع

"كان" المسبوقة بـــ "إنْ" في القرآن الكريم

وتستمر هذه الدراسة على نسقها الموضوع لها، من جعْــل فــصولها منتظمــة حسب الحالة التركيبية التي تأتي عليها "كان" في كتاب الله تعــالى، فثمــة حــالات مخصوصة رأيتها في كتاب الله تعالى تتكرر بشكل ملحوظ، ومن بين تلك الحــالات ما يأتي من سبْق "كان" بـــ "إنْ" في كثير من المواضع القرآنية، الأمر الذي يــدفعنا للنظر فيها على وجه التدقيق والتمحيص.

يذكر المرادي في كتابه: "الجنى الداني" أن "إن" مكسورة الهمزة حرف يأتي على أنواع سبعة هي:

الأول: حرف شرط يجزم فعلين، و"إنْ" هذه هي أم أدوات الشرط[1].

الثاني: أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون عاملة ومهملــة، والأشــهر فيهــا أن تكون مهملة، وإذا أُعمِلت فإنها تعمل عمل الثقيلة، أما إذا خُفِّفت فإنها تليها الأســماء والأفعال، ولا يليها من الأفعال إلا النواسخ، من مثل: إنْ كان[2].

الثالث: إنْ النافية، وهي ضربان: عاملة وغير عاملة، فالعاملة هي التي تنــصب الخبر، وندر إعمالها عند البصريين، في حين كثر عند الكوفيين، وغير العاملة وهي كثيرة في الكلام، كقوله تعالى: "إِنِ الكافرونَ إلا في غُرُوْرٍ"[3]، أي بمعنى "ما"[4].

الرابع: إنْ الزائدة، وهي ضربان: كافة وغير كافة، فأما الكافة فهي التي تــأتي بعد ما الحجازية، مثل: ما إن زيدٌ قائمٌ، فهي تكف "ما" عن عملها، وأما غير الكافــة فهي كثيرة في الكلام[5].

---

[1]. المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 207.

[2]. المرجع نفسه، ص: 208.

[3]. سورة الملك، آية: 20.

[4]. المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 209 ــ 210.

[5]. المرجع نفسه، ص: 210.

الخامس: إنْ التي هي بقية "إمّا"[1].

السادس: إن التي بمعنى "إذْ"، وهو قول ذهب إليه قوم في تأويلهم لقوله تعـالى: "إنْ كُنْتُم مؤمِنينَ"[2]، فالمعنى عندهم "إذ كنتم مؤمنين"، ومذهب التحقيق في ذلـك أن "إنْ" في مثل هذا الموضع بمعنى الشرط المتحقق، كقولك: إن كنت ولدي فافعل ذاك، وليس الأمر على أن "إنْ" في هذا الموضع بمعنى "إذ"[3].

السابع: إنْ بمعنى "قد" وهو مذهب منقول عن الكسائي، والصحيح أنها لا تـأتي بمعنى "قد"[4].

وبعد أن تحدثت عن الأنواع التي تأتي عليها "إن" في لغتنا العربية فإنني أشـرع فيما يأتي بالحديث عن المواضع القرآنية التي أحصيتها لـ "إنْ" التي تسبق "كان" في كتاب الله تعالى، وكيف كان لهما تأثيرهما في نص الآية الكريمة ومعناها.

1.4 "إنْ كان" المسندة إلى الاسم الظاهر:

وفي هذا التركيب تظهر لنا "كان" وقد سبقت بـ "إنْ" الأداة التي تأخـذ الـشكل التركيبي المخصوص في هذا الفصل، ويكون اسم "كان" اسماً ظاهراً، وليس ضميراً متصلاً أو مستتراً، أي أن الشكل التركيبي الذي تظهر عليه "كان" في هذا الجزء من الفصل يتضح كما يأتي:

إنْ + كان + اسم ظاهر.

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُـوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"[5].

والجزء المخصص بالدراسة في هذه الآية الكريمة كما يتضح لنا هو قولـه: "إن كان هذا هو الحقَّ"، فلقد أُسندت "كان" إلى اسم ظاهر وهو "هذا".

---

[1]. المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 211 ـ 212.

[2]. سورة البقرة، آية: 91.

[3]. المرادي. الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 212 ـ 213.

[4]. المرجع نفسه، ص: 214 ـ 215.

[5]. سورة الأنفال، آية: 32.

ويذكر الطبري أن سبب نزول هذه الآية ما جاء على ألسنة المشركين من قولهم: إن كان هذا ــ أي الدين ــ هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء، فجاءهم العذاب يوم بدر، بما حلّ بهم من هزيمة أمام المسلمين[1]، وقيل إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث[2].

ولقد جاء الخبر وهو "الحقَّ" منصوباً، أما الضمير السابق له "هو" إنما هو ضمير فصل لا محل له من الإعراب[3].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى تعجل الإنسان بالشر، وأن الله تعالى لا يُعجل له الإجابة عن ما يدعو به على نفسه، فالإنسان يتعجل في دعائه على نفسه بالشر، كما رأينا في الآية الكريمة، غير أن الله سبحانه لم يجب النضر بن الحارث إلا في غزوة بدر، وهو دليل على عدم تعجله سبحانه وتعالى في الإجابة لما يدعو به خلقه[4].

ويبين لنا الزمخشري عجز المشركين عن مقارعة أسلوب القرآن البياني خصوصاً، "فيتعللون بامتناع المشيئة، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهالكهم على أن يغمروه. وقيل: قائله النضر بن الحرث المقتول صبراً، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون: لو شئت لقلت مثل هذا. وهو الذي جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وإسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك، وأنه من جملة تلك الأساطير، وهو القائل إِنْ كانَ

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 13، ص: 453، وانظر: ابن أبي حاتم. تفسير القرآن العظيم، ج: 5، ص: 1690.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 13، ص: 505، وانظر: السمرقندي. بحر العلوم، ج: 2، ص: 19.

[3]. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 2، ص: 411، وانظر: الثعلبي. الكشف والبيان، ج: 4، ص: 351.

[4]. ابن أبي طالب، أبو محمد مكي (2008م). الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، تحقيق: مجموعة رسائل بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، بإشراف: الشاهد البوشيخي، نشر مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة ــ الإمارات، الطبعة الأولى ج: 6، ص: 4153.

هذا هُوَ الْحَقَّ وهذا أسلوب من الجحود بليغ، يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل، كما فعلت بأصحاب الفيل، أو بعذاب آخر. ومراده نفى كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقا مع اعتقاد أنه ليس بحق"[1].

وحين ننظر إلى الجملة التي تحتوي "كان" في الآية الكريمة نجد أنها قد صُدّرت بالشرط، وهذا الشرط تَأَتَّى من "إنْ" التي تسبق "كان"، أي أن حصول ما بعد الفاء مرتبط بحصول ما بعد "إن"، وبعبارة أخرى أن جواب الشرط مرتبط بحصول فعل الشرط، ومن هنا يبدو لنا أثر "إنْ" في معنى الآية القرآنية الكريمة، فوقوع العذاب من الله تعالى على المشركين مرتبط بكون كتابه الذي أنزله على محمد حق، وهو حق، فكيف إذن يقول المشركون مثل هذا الكلام؟!

إن هذا الكلام خرج من مشرك، وهو معتقد أن محمداً كاذب فيما أتى به، لذا فإنه يرى من التحدي أن يطلب من الله تعالى إيقاع العذاب بهم إذا كان ما جاء به محمد حقاً؛ لأنه في اعتقاده لا يراه حقاً.

أما "كان" فهي على ارتباط وثيق بـ "إنْ" التي سبقتها، فهما متلازمتان في المعنى، وأرى أن "كان" في الآية قد خرجت عن أصل معناها المتعلق بالحصول في الزمن الماضي دون الحاضر، بل هي تأخذ ناحية التوكيد في المعنى، إذ إن النضر لم يقصد أن يقول: كان هو الحق، والآن هو ليس بالحق، وإنما أراد نفي صفة الحق عما جاء به سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأحوال كافة، لذا فإنني أظن أن "كان" في هذه الآية أتت بمعنى الحدوث.

ومن عناصر التوكيد على المعنى أيضاً في الآية الكريمة دخول ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، والفائدة منه التوكيد، وهو دليل على عمق جحود المشركين بأن ما جاء به سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق، الأمر الذي جعلهم يعقدون عليه أفئدتهم، ويقيمون عليه عقولهم، فاندفعوا يؤكدون عدم حقيقة ما جاء به الرسول الكريم.

---

[1]. الزمخشري. الكشاف، ج: 2، ص: 216.

يظهر للناظر في الآية الكريمة أن الأسلوب القرآني قد جاء متناسباً مع ما يفكر فيه المشركين من ناحية جحودهم بكتاب الله تعالى، ولقد تبيّن ذلك من خلال التركيب اللغوي الواضح في الآية الكريمة، والذي يشير بكل صراحة إلى ما في تلك الآية من عقيدة شركية تقضي بجحود هؤلاء المشركين بأن ما جاء به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ حق من الله تعالى.

وننتقل للحديث عن موضع قرآني آخر، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ"[1].

يظهر لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة التركيب اللغوي الذي يقوم عليه الشاهد في هذا الجزء من الدراسة، وهو قوله: إنْ كان له ولدٌ، والحالة التركيبية تظهر على هذا النحو:

إنْ + كانَ + خبر شبه جملة مقدم + اسم كان مؤخراً.

إن هذه الجملة المصدرة بـ "إنْ" في نص الآية الكريمة تمثل جملة شرطية، والشرط فيها مستحق لما قبلها، فالتقدير فيها أنه إنْ كان للميت ولد فلكل من أبويه السدس، أي أن الأبوين يأخذان السدس في حال وجود الأولاد، فإن لم يكن للميت أولاد فلأبويه الثلث كما نصت الآية الكريمة[2].

فالآية يرتبط بعضها ببعض بشكل وثيق، ولقد رأينا أن النص القرآني قد قدم الجواب على الشرط، فذكر ما للأبوين من ميراث إذا ما مات الابن وقد ترك أولاداً، ففي هذه الحالة يأخذ كل من الأبوين السدس، أما إذا مات الابن ولم يترك أولاداً، فالميراث الثلث، فقدم النص القرآني جواب الشرط على الشرط نفسه، والغاية من ذلك بيان الأهمية، فالناظر في الميراث يبدأ بالنظر إلى ما هو مستحق للوارث، وبالتالي حسُن أن يُبدأ الكلام ببيان أن للأبوين السدس مما يترك الميت في حال أن يكون للميت أولاد، ولقد قدم القرآن الحديث عن هذه الحالة من حالات الإرث بسبب

---

[1]. سورة النساء، آية: 11.

[2]. انظر: الطبري. جامع البيان، ج: 7، ص: 36، والزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 479، والنسفي. مدارك التنزيل، ج: 1، ص: 336.

عمومها وشيوعها، فكما نعلم فإن أغلب من يموت يترك أولاداً، وهو الأمر الأشـيع بين الناس؛ لذا كان من الأولى الإتيان بما هو أشيع بين الناس، ومن ثم بيان ما هـو ليس بالشائع الأكثر.

يقول الدرويش في إعراب قوله تعالى: "إن كان له ولدٌ" من الآية الكريمة: "الواو عاطفة منسوقة على ما تقدم للشروع في إرث الأصول، ولأبويـه جـار ومجـرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ولكل واحد جار ومجرور، يوحي ظاهر الكـلام أنهمـا بدل بإعادة الجار، وهذا ما نص عليه أكثر المعربين وعلـى رأسـهم الزمخـشري، ودعم هذه البدلية بقوله: «إنه لو قيل ولأبويه السدس لكان الظاهر اشـتراكهما فيـه، ولو قيل: ولأبويه السدسان، لأوهم قسمة السدسين عليهمـا علـى التـسوية وعلـى خلافها. فإن قلت: فهلا قيل: ولكل واحد من أبويه السدس؟ وأي فائـدة فـي ذكـر الأبوين أولا ثم في الإبدال منهما؟ قلت: لأن في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيد وتقوية كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير» هذا ما قاله الزمخشري ونقلـه بحروفه جميع المعربين والمفسرين، ولكن هناك نقدا لهذا الإعراب تراه فـي بـاب الفوائد. ومنهما جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لواحد والسدس مبتدأ مـؤخر ومما جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وجملة ترك صلة الموصول وإن شرطية وكان له ولد: كان وخبرها المقدم واسمها المؤخر، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فلكل واحد وجملة الشرط مستأنفة"[1].

وننظر في الآية الكريمة حيث نجد أن الخبر قد تقدم على اسم "كان" وهو شـبه جملة، والواقع أن تقدمه هذا كان واجباً؛ وذلك لأن المبتدأ أو ما كان في الأصل مبتدأ نكرة، والخبر شبه جملة، فالقاعدة تقول أنه إذا كان الخبر شبه جملة والمبتدأ نكـرة، وجب تقديم الخبر على المبتدأ، ولكن رغم هذا الوجوب فإن في تقدم الخبـر علـى المبتدأ فائدة نستطيع أن نلمسها من خلال سياق الآية القرآنية الكريمة، فالآية تتحدث عن الميراث، وبالتالي فإن الحديث عموماً ينصب على الميت، وما صلة قرابة كـل من الوارثين به، وبناء على صلة القرابة بينه وبين الوارثين يتحدد المقدار الذي يرثه الشخص، ومن هنا فإن الضمير المتصل باللام في الخبر، والعائد على الميت يمثـل

---

[1]. درويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 2، ص: 170 ــ 171.

حديثاً عن الشخصية الأظهر في هذه الآية، وبالتالي هي الشخصية التي يدور حولها محور الكلام، وهي التي تأخذ الاهتمام لدى المتلقي؛ وذلك بسبب ارتباط ما عـــداها من الأحكام بها، ومن هنا كان تقديم الخبر الذي يحتوي ضميراً عائداً على الشخصية الأبرز في نص الآية أولى من تأخيره؛ وذلك لأهمية الخبر.

وفيما يأتي ننتقل للحديث عن موضع آخر من المواضع التي احتوت "إن كـــان" في كتاب الله تعالى، حيث يقول سبحانه: " وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَـــا لَمَفْعُولًا"[1].

لقد احتوت هذه الآية الكريمة على الحالة التركيبية التي نحن بصدد دراستها فـــي هذا الجزء من الدراسة، وهي مجيء "كان" مسبوقة بــــ "إن"، والـــشكل التركيبـــي للجملة يظهر على هذا النحو:

إنْ + كان + مبتدأ + خبر مفرد.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة: "ويقول هؤلاء الذين أوتوا العلم مـــن قبل نزول هذا القرآن، إذ خروا للأذقان سجودا عند سماعهم القرآن يُتْلَـــى علـــيهم، تنزيها لربنا وتبرئة له مما يضيف إليه المشركون به، ما كان وعد ربنا مـــن ثـــواب وعقاب، إلا مفعولا حقا يقينا، إيمان بالقرآن وتصديق به، والأذقان في كلام العرب: جمع ذَقَن وهو مجمع اللَّحيين"[2].

ومن كلام الطبري نرى شيئاً مهماً في الآية الكريمة، وهو أن الطبري فسّر "إنْ" في الآية بمعنى "ما" أي أن المعنى: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً، هذا يعنـــي أن "إنْ" في الآية الكريمة نافية، وتفسير الطبري على هذا.

ويؤيد ذلك ما ذكره الزجاج في معانيه، حيث قال: "إن كان وعد ربنا لمفعـــولاً، معناه: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً"[3]، وهو ما ذكره الطبري من قبل وأشرنا إليه.

---

[1]. سورة الإسراء، آية: 108.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 17، ص: 578، وانظـــر: الزمخـــشري. الكـــشاف، ج: 2، ص: 699، وأبو حيان. البحر المحيط، ج: 7، ص: 124.

[3]. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 3، ص: 264.

أما الدرويش فيذكر إعراباً مغايراً لما ذكره الأولون، حيث إنه يعد "إنْ" في الآية الكريمة مخففة من الثقيلة، ويجعل ضمير شأن اسمها، وخبرها جملة "كان" وما في حيزها، يقول في ذلك: "وإن مخففة مهملة واسمها ضمير الشأن وجملة كان خبرها ووعد ربنا اسم كان واللام الفارقة ومفعولا خبرها"[1].

ولم نجد أحداً ـ فيما اطلعنا عليه ـ قال بمثل قول الدرويش، وفي هذه الحالة يمكننا أن نرى أن التفسير العام للآية يكون على نحوين:

الأول: أن تكون: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً.

الثاني: أن تكون بمعنى: إنه كان وعد ربنا مفعولاً.

والباحث يرى أن المعنى الأول هو الأقرب، وذلك لأن قولنا: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً، يحمل قيمة توكيدية أكبر من قولنا: إنه كان وعد ربنا مفعولاً، إذ إن لأسلوب الحصر الظاهر لنا في المعنى الأول استبعاداً أي احتمال قد يكون في ذهن المتلقي، فالمعنى: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً وليس مردوداً، في حين أن المعنى الثاني لا يحمل هذه القيمة الدلالية البلاغية، على الرغم من أن المعنى الثاني فيه توكيد بـ "إنّ" وإن كانت مهملة، غير أنها تحمل صفتها، واللام المتصلة بخبر "كان" أيضاً تحمل صفة التوكيد، غير أن هذه العناصر الموجودة في الآية الكريمة ـ في ظن الباحث ـ لا ترقى بها لكي تكون حاملة للمعنى المقصود من الآية الكريمة، وإن الأبلغ أن يكون معنى الآية: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً.

ومن خلال كلامنا السابق كله يتبين لنا الأثر الذي أحدثته "إنْ" من ناحية في معنى الآية الكريمة، ومن ناحية أخرى ما أحدثته "كان" في معنى الآية أيضاً، فهما قد قدما لنا الآية لتحمل دلالة معنوية خاصة، وبالتالي كان لهما الأثر الأكبر في بلاغة الآية الكريمة.

---

[1]. درويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 5، ص: 516.

2.4 "إنْ كان" المسندة إلى الضمير:

وفي هذا الجزء من الدراسة تظهر لنا "كان" وقد سُبِقت بـ "إنْ" وهي مسندة إلى ضمير، يستوي في ذلك ضمير الرفع المستتر، وضمير الرفع المتصل، وفيما يأتي نعرض للمواضع التي اخترناها من كتاب الله تعالى لنبين فيها الأثر الذي أحدثته "كان" وما سبقها في معنى الآية الكريمة.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآَيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ"[1].

وواضح لنا من خلال نص الآية القرآنية الكريمة أن الجملة المخصوصة بالدرس هي قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: إن كان كبُر عليكم مقامي، فلقد دخلت "إنْ" على "كان" وفي الأصل فإن "كان" مستترة الاسم، والجملة الفعلية المصدرة بـ "كبُر" في محل نصب خبر "كان".

يقول الطبري في تفسير هذا الجزء من الآية الكريمة: "يَقُولُ: إِنْ كَانَ عَظُمَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ"[2].

ويقول الثعلبي أيضاً في تفسير هذه الآية الكريمة: "اقرأ يا محمد على أهل مكة نَبَأَ خبر نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ ولد وأهل يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عظم وثقل وشق عَلَيْكُمْ مَقامِي فلو شق مكثي بين أظهركم وَتَذْكِيرِي ووعظي إياكم بِآياتِ اللَّهِ بحججه وبيناته فعزمتم على قتلي أو طردي فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فبالله وثقت"[3].

---

[1]. سورة يونس، آية: 71.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 12، ص: 330.

[3]. الثعلبي. الكشف والبيان، ج: 5، ص: 141، وانظر: الزمخشري. الكشاف، ج: 2، ص: 359، وابن عطية. المحرر الوجيز، ج: 3، ص: 131، والرازي. مفاتيح الغيب، ج: 17، ص: 283، وأبو حيان. البحر المحيط، ج: 6، ص: 85، 86.

وهذه الآية الكريمة نزلت على قلب النبي الكريم صلوات الله تعالى عليه على وجه التسلية لما كان يقاسيه من أصناف العذاب من قومه، فإن أيام نوح ــ عليه السلام ــ وإنْ طالت فإنها ما لبثت إلا وانتهت[1]، فكذلك الأمر مع سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا بد أن تنتهي أيام المعاناة والمقاساة التي يقاسيها رسولنا الكريم من قومه.

ويقول الدرويش في إعراب قوله تعالى: "إن كان كبر عليكم مقامي": "وإن شرطية وكان فعل الشرط واسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة كبر عليكم مقامي خبرها والمراد بتكبير المقام تعاظم الشقة، والمقام بالفتح المنزلة والمكانة"[2].

ويظهر لنا من خلال تركيب الجملة في نص الآية الكريمة أن "إنْ" الشرطية قد دخلت على جملة اسمية مصدرة بالفعل الناقص "كان" هذا الفعل كما نرى جاء على صيغته الماضية، غير أن هذه الصيغة الماضية لم تكن مؤثرة في زمن الجملة التي دخلتها، فالجملة أصلاً مكتسبة الزمن الماضي من خلال فعل الخبر وهو "كبر" فهو فعل ماضٍ، وبالتالي فإن زمن الجملة بشكل طبيعي متأتٍ من هذا الفعل قبل أن يكون متأتياً من "كان".

وإذا نظرنا إلى مكان "كان" في نص الآية الكريمة فإننا نكاد لا نجد لها دوراً مؤثراً في التركيب، **فقولنا**:

إن كان كبر عليك.

وقولنا:

إنْ كبُر عليك.

فمن خلال مقارنة معنى كل من الجملتين، فإن الباحث يرى أن معنى الجملة الأولى لم يختلف كثيراً عن معنى الجملة الثانية إن لم يكونا متماثلين، هذا من ناحية التركيب، ومن ناحية المعنى فأي دلالة دلت عليها "كان" في الكلام، فهي لم تؤثر في نقل زمن الجملة، ولم تكن دالة على فعل الكينونة.

---

[1]. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 2، ص: 108.

[2]. درويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 4، ص: 276.

يظهر لي أن "كان" في نص الآية الكريمة ارتبطت بتوكيد المعنى دون غيره من الوظائف التركيبية والمعنوية، فهي قد جاءت للتوكيد، ولا مكان لها في التركيب والدلالة، أي أنها بحكم الزيادة، غير أنه لا زيادة في كتاب الله تعالى.

ويبدو أن معنى الآية الكريمة كان مرتكزاً على معنى كبر المقام عند قوم نوح، ومن هنا حُذف اسم "كان" وأُبقي على خبرها، على أساس أن الخبر هو مناط المعنى، والمقصود إليه في نص الآية الكريمة، فحذف المبتدأ ـ اسم كان ـ والإبقاء على الخبر دليل على الاهتمام بهذا الخبر، فقصر الكلام قبل الخبر المقصود بالاهتمام كي يكون الوصول إليه سريعاً في الكلام.

وننتقل إلى آية قرآنية كريمة أخرى ورد فيها "كان" مسبوقة بـ "إنْ" وقد اسندت إلى الضمير، يقول الله سبحانه وتعالى: "قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ"[1].

ففي نص الآية الكريمة نرى التركيب الذي أتت عليه "كان"، وهو على النحو الآتي:

إنْ + كان + ضمير رفع متصل + خبر جملة فعلية فعلها مضارع.

لقد جاءت هذه الآية الكريمة رديفة للآية سابقتها، وتمثل شكلاً حواريا بين القوم الكافرين وإبراهيم عليه السلام، فلقد سألوه: أأنت فعلت هذا التكسير والتحطيم بآلهتنا يا إبراهيم؟ فأجابهم إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا وعظيمهم، فاسألوا الآلهة من فعل بها ذلك وكسرها إن كانت تنطق، أو تعبر عن نفسها[2]، ولقد قصد إبراهيم عليه السلام من قوله: كبيرهم، أي كبير الأصنام، والعظيم عندهم[3].

---

[1]. سورة الأنبياء، آية: 63.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 18، ص: 461، وانظر: السمرقندي. بحر العلوم، ج: 2، ص: 431،

[3]. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 3، ص: 396.

أما الماوردي فإنه يرى أن في قوله تعالى: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وجهين: أحدهما: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فجعل إضافة الفعل إليهم مشروطاً بنطقهم تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم[1].

وإذا نظرنا في الآية الكريمة فإننا نجد عدداً من الأمور تستحق أن تكون مؤثرة كل التأثير في تحديد معناها، وهي على ما يأتي:

أولاً: دخول "إنْ" الشرطية، فقد أفادت أن المعنى الموجود في حيزها مشروط بما في فعلها، وبالتالي إن كانت الآلهة تنطق اسألوها أيها القوم، فقدم الجواب على فعل الشرط، وهذا دليل على أن معنى الجواب أهم من الشرط، فلذلك تقدم الجواب على شرطه، وإن كنا نتكلم عن هذا خارج دائرة التركيب الملزم في اللغة، فالأصل أن يكون التركيب الشرطي مكوناً من فعل الشرط، ثم يأتي جواب الشرط، غير أن هذه الآية الكريمة تقدم فيها الجواب معنوياً على الفعل.

ثانياً: "كان" ومسندها، لقد أسندت "كان" في نص الآية الكريمة إلى ضمير رفع متصل، وهو واو الجماعة، وهذا الضمير عائد على الآلهة، ولقد جعلت "كان" زمن الجملة متصلاً بالزمن الماضي، وهو ما سيكون له تأثير في المعنى نوضحه في الفقرة القادمة.

ثالثاً: جملة الخبر: لقد أثرت جملة الخبر من خلال ارتباطها بـ "كان" تأثيراً كبيراً في معنى الآية، وتركيبها الزمني، فجملة الخبر مصدرة بفعل مضارع، والفعل المضارع كما نعلم في أصل اللغة يدل على الحال أو الاستقبال، فمن هنا فإن الخبر يدل على الحالية، غير أن دخول "كان" عليه أدى إلى نقل الزمن العام للجملة إلى الماضي، فأصبح الزمن مرتبطاً باستمرارية النطق في الزمن الماضي، أي بعبارة أخرى: إنْ كانت الأصنام أصلاً تنطق، وهمي في هذه الحالة لا تنطق.

يظهر لنا من خلال صياغة المعنى المرتبط بالآية الكريمة أن "كان" قد أثرت في جعل المعنى مرتبطاً بالزمن الماضي، فإبراهيم حين حاور هؤلاء الكفار قصد أن يبين لهم أن تلك الأصنام في أصلها لا تنطق، فكيف تنطق الآن؟! وبالتالي جاءت

---

[1]. الماوردي. النكت والعيون، ج: 3، ص: 451 ــ 452.

الآية التي تليها على لسان المشركين الكفار يذكرون فيها أن الأصنام لا تنطق، حيث قال سبحانه وتعالى: " ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ"[1].

وفيما يأتي ننتقل إلى آية قرآنية أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ"[2].

ويظهر لنا من خلال الآية القرآنية الكريمة التركيب الذي جاءت عليه تلك الآية، وهو كما يلي:

إنْ + كان + نا المتكلمين + ضمير فصل + خبر منصوب.

ولقد جاء السحرة بهذا الشرط لفرعون – لعنه الله – وأرادوا بالأجر الثواب والمثوبة على انتصارهم على موسى بالسحر[3]، ولقد ظنوا أنهم يغلبون بما يسحرون، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرهم، وأنه لا يرد عنهم ما زوّروه في أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكيد لهم[4].

وقول السحرة في الآية الكريمة كأنه جاء جواباً لسؤال من سأل: ماذا قال السحرة لفرعون؟ فأُجيب: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، ولقد نكّر الأجر للتعظيم، فكأنهم يقولون لفرعون إن لنا أجراً عظيماً إن غلبنا موسى[5].

لقد جعل السحرة من أجرهم شرطاً على انتصارهم على موسى، ولم يجعلوا الأجر بغير انتصار، ومن قائل بأن هذا الشرط له جواب محذوف، ومن قائل بأن جوابه المتقدم عليه، أما "نحن" الواردة في قوله تعالى: إن كنا نحن الغالبين، فلها وجهان: إما أن تكون توكيداً للضمير المتصل في "كان"، أو أن تكون ضمير فصل لا محل له من الإعراب[6].

---

1. سورة الأنبياء، آية: 65.
2. سورة الأعراف، آية: 113.
3. الطبري. جامع البيان، ج: 13، ص: 34.
4. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 1، ص: 557.
5. انظر: الزمخشري. الكشاف، ج: 2، ص: 139.
6. انظر: أبو حيان. البحر المحيط، ج: 5، ص: 132.

ويقول الدرويش في إعراب "قالوا إن لنا لأجراً إنْ كنا نحن الغالبين": قالوا: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لإيراد جوابهم على تقدير سأل: ما قالوا؟ وتنكير الأجر يقصد به المبالغة في الكثرة، وإن حرف مشبه بالفعل، ولنا: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها المقدم، واللام المزحلقة وأجراً: اسمها، والجملة في محل نصب مقول القول، إن كنا نحن الغالبين، إنْ: شرطية، وكان واسمها، ونحن: تأكيد لـ "نا"، ويجوز أن يكون ضمير فصل أو عماداً، والغالبين: خبر، وجواب الشرط محذوف للدلالة عليه"[1].

لقد اتصلت "كان" بضمير الرفع المتصل وهو "نا" المتكلمين، وهو شيء مفترض بسبب أن الكلام على ألسنة السحرة، فمن هنا كان الضمير ضمير المتكلمين، ولقد سُبِقت "كان" بأداة الشرط "إنْ"، وبيّنا سابقاً أن فيها وجهين: إما أن يكون جواب شرطها محذوفاً، أو أن يكون ما تقدم عليها هو جواب الشرط لها.

ولقد جاء الضمير "نحن" ضمير فصل من أجل تأكيد المعنى المرتبط بالغلبة عند فرعون، فلو قال السحرة: إن كنا الغالبين، لن يكون التأكيد كبيراً كما هو الحال في الآية الكريمة بوجود ضمير الفصل "نحن" فمن خلال هذا الضمير كانت الفكرة أوثق في ذهن فرعون، بالإضافة إلى أن ضمير الفصل أفادنا أن السحرة كانوا واثقين بأنهم سينتصرون على موسى بسحرهم، ومن هنا جاءوا بكلامهم مؤكداً بضمير الفصل، أما إذا كان الضمير أصلاً توكيداً فالتوكيد يأتي لتأكيد المعنى المرتبط به، وبالتالي فالكلام على التأكيد أو على ضمير الفصل متشابه إلى حد ما.

ومن ناحية أخرى فإن "كان" في هذه الآية الكريمة أدت وظيفة مختلفة عن لو كانت الآية على هذا النحو: إنْ غلبنا، باعتبار أن "كان" أفادت الزمن الماضي، والواقع أن كان أفادت الزمن الماضي ولكن على اعتبار أن مسألة المنافسة بين السحرة وموسى محسومة لأولئك السحرة ـــ في ظنهم ـــ فمن هنا جاءوا بـ "كان" ماضية لبيان أن المسألة محسومة عندهم، وجاءوا بالخبر بصيغة اسم الفاعل لتدل على الحال والاستقبال، فيدل ذلك على أن المنافسة لم تحصل بعد، ومن هنا يتبين لنا ما أحدثته "كان" في التركيب والمعنى المرتبط بهذه الآية القرآنية الكريمة.

---

[1]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 3، ص: 423 ـــ 424.

وفيما يأتي ننتقل إلى آية قرآنية أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[1].

إن هذه الآية القرآنية الكريمة تحتوي موضعين من المواضع التي دخلت فيها "إن" الشرطية على "كان" وهما:

1 ــ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا.

2 ــ إنْ كنتم صادقين.

وما سيكون مدار بحثنا في هذا الجزء ــ إن شاء الله تعالى ــ هو الموضع الثاني؛ وذلك لأن الموضع الثاني قد تكرر على هذه الهيئة في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى[2]، ولما كان هذا الموضع متكرراً على هذا الشكل، كان من الأولى بنا أن ندرسه دون غيره من كتاب الله تعالى، وتجدر الإشارة قبل أن نشرع في توضيح هذه الآية الكريمة وتحليلها أن شكل التركيب المخصوص في هذه الآية: إن كنتم، قد ورد في كتاب الله تعالى أكثر من ثمانين مرة، وهي حالة ينفرد بها هذا التركيب دون غيره من التراكيب المحتوية "كان" في كتاب الله تعالى.

وواضح لنا من خلال نص الآية الكريمة أن الشكل التركيبي الذي جاءت عليه "كان" في الجملة هو:

إنْ + كان + "تُمْ" ضمير الرفع للمخاطبين + خبر مفرد منصوب.

وتتحدث الآية الكريمة عن خطاب الله تعالى للكافرين، فهو يخاطبهم ويقول لهم: إنه لو كان عندهم شك في أن محمداً قد افترى هذا الكتاب ــ أي القرآن ــ من

---

[1]. سورة البقرة، آية: 23.

[2]. من ذلك: سورة البقرة، آية: 31، 94، 111، وسورة آل عمران، آية: 93، 168، 183، وسورة الأنعام، آية: 40، 143، وسورة الأعراف، آية: 194، وسورة يونس، آية: 38، 48، وغيرها من المواضع في كتاب الله تعالى.

عنده، فليأتوا هم بسورة من مثل هذا القرآن يفترونها كما يفتريها محمد، وعليهم أن يأتوا بمن يشهد لهم ذلك، كل هذا يكون إن كانوا صادقين في دعواهم[1].

إذن فإن الآية القرآنية الكريمة فيها نبرة تحدي للكافرين، فإذا كانوا يتهمون النبي الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالكذب والافتراء، فليبرهنوا عن اتهامهم هذا ببرهان صادق، وليثبتوا أن سيدنا محمد قد افترى هذا الكتاب من عنده، ولا يكون الدليل صادقاً إلا من خلال الشهداء الذين يشهدون لهم على صدق ما ذهبوا إليه.

فالآية بيّن فيها الله سبحانه وتعالى عجز الكافرين والمشركين عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، لذلك ختمها سبحانه وتعالى بالشرط "إن كنتم صادقين" وهو سبحانه عالم بكذبهم، وأنهم ليسوا قادرين على أن يأتوا بمثل القرآن مهما فعلوا.

ولو نظرنا في الآية الكريمة نجد أن "كان" لم تفدنا نقل الزمن في الجملة إلى الماضي؛ لأن الكافرين ليسوا صادقين، ونرى أن هناك تناسباً وتناسقاً بين ما افتُتحت به الآية الكريمة وهو قوله تعالى: "وإن كنتم في ريب..."، فهذه الصورة التي أتت عليها "كان" في بداية الآية ذات ارتباط تناسقي مع الهيئة التي أتت عليها في ختام الآية الكريمة، والواقع أن الله سبحانه وتعالى يقرر أن الكافرين ليسوا صادقين، ولا يوجد احتمال للصدق عندهم؛ إذ كيف يتصفون بالصدق وهم يرون أن القرآن مفترى من عند سيدنا محمد؟!

ولو أننا قلنا أنه يمكن أن نستعيض عن "إنْ" الداخلة في الآية الكريمة بـ "لو" على أساس الاشتراك في الشرطية، فإن ذلك لا يمكن، وإن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً، فلو قلنا في غير القرآن: لو كنتم صادقين، بدلاً من: إن كنتم صادقين، فالأولى يتوجب أن تكون "لو" بمعنى الامتناع للامتناع، وهو معنى بعيد جداً عن المعنى الذي نستفيده من قولنا: إن كنتم صادقين، فما الذي وقف مانعاً ضد كون المشركين صادقين؟ وبالتالي فإن مجيء "إنْ" داخلة على جملة "كان" ومعموليها أبلغ وأبين في المعنى من غيرها.

---

[1]. انظر: الطبري. جامع البيان، ج: 1، ص: 376، والزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 1، ص: 100، والرازي. مفاتيح الغيب، ج: 2، ص: 347، والقرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج: 1، ص: 233.

أما الضمير الداخلة عليه "كان" وهو اسمها "تم"، فهو ضمير رفع، ولقد جاء متناسباً أيضاً مع السياق العام للآية الكريمة، فسياق الآية عموماً يقتضي الخطاب للمشركين، فتارة كان يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بالضمير "تُم" مثل: كنتم، وتارة بالضمير"كُم" مثل: شهداءكم، وتارة أخرى بفعل الأمر المسند لواو الجماعة، مثل: فأتوا، وادعوا، فكان من الأولى أن يستمر الخطاب القرآني على وتيرة واحدة، وأن يكون أيضاً قائماً على أساس موحد في خطابه، لذا تناسقت "إن كنتم صادقين" مع الطبيعة التركيبية العامة للآية الكريمة.

ومن خلال ما سبق تبيّن لنا ما أحدثته "كان" وما هو في حيزها من أثر في المعنى الذي لا يمكن أن يؤديه غيرها في مثل هذا السياق القرآني، وبيّنا أيضاً التناسق الوارد في الآية الكريمة سواء في الألفاظ أم في المعاني المرتبطة بهذه الألفاظ.

وفيما يأتي ننتقل إلى آية قرآنية من كتاب الله تعالى، يقول سبحانه: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"[1].

يظهر لنا من خلال الآية الكريمة الشكل التركيبي الذي أتت عليه، وهو على هذا النحو:

إنْ + كان + مسندة إلى ضمير الرفع المتصل + خبر جملة فعلية.

يخاطب الله تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه الكريم بقوله: قل يا محمد: إذا أردتن الحياة الدنيا فإني أمتعكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهنّ بالطلاق بقوله (وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُحْسِنِينَ) وقوله (وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا) يقول: وأطلقكنّ على ما أذن الله به، وأدّب به عباده بقوله (إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)"[2].

---

[1]. سورة الأحزاب، آية: 28.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 20، ص: 251، وانظر: الثعلبي. الكشف والبيان، ج: 8، ص: 31، والماوردي. النكت والعيون، ج: 4، ص: 394، والزمخشري. الكشاف، ج: 3، ص: 534.

فالخطاب هاهنا للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وهو خطاب من الله تعالى من أجل أن ينقله لأزواجه، فيخيّرهن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، فإذا كنّ يردن الحياة الدنيا فالأمر مختلف عن إرادة الحياة الآخرة كما بيّنت الآية الكريمة.

وكما بيّنا من قبل في كلام الطبري فإن المقصود بالمتعة التي أرادتها الآية الكريمة متعة الطلاق، فإذا أردن نساء الرسول – صلى الله عليه وسلم – متعة الحياة الدنيا وذلك بعد أن طلبن من رسول الله فضل النفقة، فإن الرسول يمتعهن بالطلاق، فيستمتعن بالحياة الدنيا[1].

إن أغلب التفاسير – إنْ لم نقل كلها – تعرضت لتفسير الآية الكريمة على النحو الذي أوردناه عند الطبري، غير أن ما يهمنا من هذه الآية الكريمة أن نتحدث عن تركيب قوله: "إنْ كنتنَّ تردْنَ الحياة الدنيا"، ففيها مرادنا، وإعراب هذا الجزء من هذه الآية يتمثل لنا جلياً بكلام الدرويش، إذ يقول: "وإن شرطية وكنتن فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها والنون علامة التأنيث والتخيير لسبر أغوار نفوسهن حتى إذا اخترن الدنيا فارقهن وجملة تردن خبر كان والنون فاعل والحياة الدنيا مفعول به وزينتها عطف على الحياة. (فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا) الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه أتى جملة طلبية وتعالين فعل أمر مبني على السكون والنون فاعل وأمتعكن مجزوم لأنه جواب الطلب وأسرحكن عطف على أمتعكن وسراحا مفعول مطلق وجميلا صفة"[2].

لقد جاءت "كان" في هذه الآية الكريمة مسبوقة بـ "إنْ" وهي شرطية كما ذكرت كتب الأعاريب والتفاسير للقرآن الكريم، ولقد أثرت "إن" في معنى الآية، فلقد أفادت عدم العلم من النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن أزواجه يردن الحياة الدنيا أم لا، فمن خلال الشرط المتحصل لنا من "إنْ" يتبين لنا أن النبي يسأل أزواجه، سواء أوقع هذا السؤال أم لم يقع، فإن معنى الآية ودلالتها يحتمل هذا الاحتمال، ومن هنا فقد أفادت "إنْ" معنى الشرط من ناحية تركيبية، أما من ناحية دلالية فإنها دلتنا على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يكن عارفاً بمراد أزواجه.

---

1. السمرقندي. بحر العلوم، ج: 3، ص: 58.
2. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 8، ص: 8.

ولقد اتخذت "كان" في هذه الآية الكريمة صيغة الماضي، واتصلت بضمير الرفع العائد على "أزواج"، وصيغة الماضي هذه لا تؤثر بشكل مباشر في زمن الجملة، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الخبر جملة فعلية فعلها مضارع، هذا يعني أن الخبر يأخذ دلالة الحال والاستقبال في الجملة المصدرة بـ "كان".

أما الضمير "تُنَّ" المتصل بـ "كان" فهو عائد على جماعة النسوة، وهو ضمير خطاب، ولكن لدينا سؤال، هل الخطاب من الله تعالى أم من النبي الكريم؟

عند تدقيقنا في نص الآية الكريمة فإن الضمير "تُنَّ" لمخاطبة جماعة النساء هو من خطاب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم لهن ــ والدليل على ذلك ما يلي:

أولاً: لو كان الخطاب من الله تعالى لكان من الأولى أن يكون الكلام: "إنْ كنَّ يردن" وليس "إنْ كنتنَّ" على أساس أن الله تعالى يخاطب نبيه الكريم، وبالتالي فإنه يتحدث إلى النبي عن أزواجه بصيغة الغائب لا بصيغة الخطاب، ومن هنا فإن الخطاب يكون من الرسول بأمر من الله تعالى.

ثانياً: أن سياق الآية الكريمة يؤيد أن يكون الخطاب من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ إن الله تعالى يقول: "فتعالين أمتعكن"، فكيف يمتع الله تعالى أزواج النبي إن كان الخطاب لهن من الله مباشرة؟ إن هذا ليس مقبولاً، لذا صح أن يكون الخطاب لأزواج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ منه هو وليس من الله تعالى لهن.

أما جملة الخبر فهي مصدرة بالفعل "تردن" وهو فعل مضارع يفيد الحال والاستقبال، غير أنه تأثر بعامل النصب في بداية الجملة الاسمية وهو "كان"، فأخذ حالة الدلالة على الماضي وليس الحال والاستقبال، والمعنى: إنْ أردتن الحياة الدنيا.

وما دام المعنى "إن أردتن الحياة" فلماذا لم يأتِ نص الآية الكريمة صريحاً على هذا النحو: قل لأزواجك إن أردتن الحياة الدنيا؟

إن دخول "كان" الماضية على هذه الجملة نقل زمنها الحالي والاستقبالي إلى الزمن الماضي، غير أنه لم يكن بالصيغة القطعية التي يفيدها الفعل الماضي، فـ "كان" أدخلت شيئاً من التشكيك على حصول الفعل الداخل في الشرط، في حين لو استعملت الآية الكريمة "أردتن" لكان الفعل أكثر تحقيقاً من استعمال "كنتن تردن" وبالتالي فإن "كان" أحدثت دلالة مهمة في نص الآية الكريمة.

وفي نهاية هذا المبحث نرى أن "كان" المسبوقة بـ "إن" قد وردت كثيراً في كتاب الله تعالى، وكانت في ورودها تأخذ الصيغ التركيبية المختلفة، من الإسناد إلى الاسم الظاهر، أو الضمير المقدر، أو الضمير المتصل، غير أن هناك صيغاً كثيرة لم ترد في كتاب الله تعالى، وهي:

1 ـ كان المسندة إلى ضمير الاثنين: كانا.

2 ـ كان المسندة إلى ضمير الاثنتين: كانتا.

3 ـ كان المسندة إلى ضمير المخاطبَيْنِ: كنتما.

وبالتالي فإن "كان" لم ترد بالصيغة التي تُسند فيها إلى ضمير الاثنين أو الاثنتين في كتاب الله تعالى.

3.4 "إنْ" الداخلة على "كان" في صيغة المضارعة:

لقد كان حديثنا في الصفحات السابقة عن "إنْ كان" حيث تأخذ "كان" الصيغة الماضية في كتاب الله تعالى، أما في هذا المبحث من هذا الفصل فسينتقل حديثنا عن "كان" في صيغة المضارعة وما تسند إليه من اسم ظاهر أو ضمير، وفيما يأتي عرض لبعض تلك الآيات التي أحصيناها في هذا الشأن.

يقول الله سبحانه وتعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ"[1].

نجد في هذه الآية الكريمة مثالين على الحالة التركيبية التي نحن بصدد دراستها، وهما:

1 . إن يكن منكم عشرون صابرون...

2 . إن يكن منكم مائةٌ...

---

[1]. سورة الأنفال، آية: 65.

وحين ننظر في التركيب لكل من هاتين الآيتين نجد أنه متساوٍ، وهو على هــذا النحو:

إنْ + يكن + خبر مقدم + اسم "كان" مؤخراً.

لذا سيكون حديثنا عن الموضع الأول من هذين الموضعين، وهو قولـــه تعـــالى: "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين".

نأتي بإعراب هذه الآية الكريمة قبل أن نشرع بالحديث عنها، وهذا الإعراب كما أورده الدرويش في إعرابه، حيث قال: "إن يكن منكم عــشرون صـــابرون يغلبـــوا مائتين، إن شرطية ويكن فعل الشرط ومنكم خبر يكــن المقــدم وعــشرون اســمها المؤخر وصابرون صفة ويغلبوا جواب الشرط ومئتين مفعول به، ويجوز أن تعرب يكن هنا تامة فيكون عشرون فاعلا ومنكم حا"[1].

وذكر الطبري تفسيراً للآية الكريمة غير أنه لم يتطــرق إلـــى نقــص "كـــان" أو تمامها، بل ذكر أن معنى الآية الكريمة: يا أيها النبي حث المــؤمنين علـــى قتـــال الكافرين، فإذا كان منكم عشرون صابرون ثابتون على الحق، فإن هؤلاء الثلة يغلبوا مائتين من المشركين[2]، وهذه الآية الكريمة جاءت في بيان عدم جواز الفــرار أمـــام المشركين إذا كان عددهم يساوي عشرة أضعاف المؤمنين، فكل عشرة يقابلهم مائة، وكل واحد يقابله عشرة، ولكن هذه الآية قد نُسخت بالآية التي تليها، أي أن كل واحد من المؤمنين يقابله اثنان من المشركين أو الكافرين[3].

أما الخلاف في "كان" هل هي ناقصة أم تامة فلقد ورد عن العلماء أقوال، فمنهـــا أن النحاس عدها ناقصة، وذلك حين تحدث عن "عشرون" حيث ذكر أنها اسم "يكن" ولذلك جاءت مرفوعة[4]، أما العكبري فقد أورد الوجهين، فأجاز أن تكون "يكن" تامة،

---

[1]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 4، ص: 40.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 14، ص: 50، والزجاج. معاني القــرآن وإعرابـــه، ج: 2، ص: 424.

[3]. الماوردي. النكت والعيون، ج: 2، ص: 302، والزمخشري. الكــشاف، ج: 2، ص: 235، وأبو حيان. البحر المحيط، ج: 5، ص: 349.

[4]. النحاس. إعراب القرآن، ج: 2، ص: 104.

و"عشرون" فاعلها، وأجاز أن تكون ناقصة، و"عشرون" اسمها[1]، وبالتالي فإنه لا قطع في أنها تامة أو ناقصة.

وإذا نظرنا في الآية الكريمة نجد أن "إنْ" قد دخلتها لدلالة الشرط، وهذا واضح في نص الآية، وهذه الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى[2]، ولقد دخلت على الفعل "يكون" فأفادت الشرط فيه.

ولقد تقدم خبر "يكن" على اسمها، في حال أن تكون ناقصة، والتقديم هاهنا يفيد الأهمية، فالله تعالى يريد أن يكون من المؤمنين عشرون صابرون، وليس من غيرهم، فالتقديم هنا أفاد التخصيص للمؤمنين دون غيرهم، أما إذا كانت "يكن" تامة فإن الحال "منكم" تقدمت على الفاعل أيضاً للتخصيص، فالمهم أن يكون هؤلاء العشرون في حال كونهم من المؤمنين الصابرين.

ويظهر للباحث أن "يكن" هاهنا تامة أقرب منها إلى أن تكون ناقصة، وذلك لإفادة الحدوث في معنى التامة، وعدم دلالة النقص في الناقصة، فالمعنى: إنْ حصل منكم عشرون صابرون، وبالتالي فإن "يكن" بهذا المعنى تامة وليست ناقصة.

وفيما يلي ننتقل إلى موضع آخر من كتاب الله تعالى، يقول سبحانه وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا"[3].

ومن خلال نص الآية القرآنية الكريمة يتبين لنا أن الجملة المخصوصة هي: إن يكن غنياً أو فقيراً، وتركيبها على النحو الآتي:

إنْ + يكن + مسندة للضمير المستتر + خبر منصوب.

---

[1]. العكبري. التبيان في إعراب القرآن، ج: 2، ص: 631.

[2]. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (1415هـ). روح المعاني في في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ج: 5، ص: 227.

[3]. سورة النساء، آية: 135.

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في الشهادة، فالمسلم يتوجب عليه أن يؤدي شـــهادته على الوجه الصحيح القويم سواء أكان للغني أم للفقير، وقيل إن هذه الآية نزلت في النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ اختصم إليه رجلان؛ غني وفقير، وكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يميل مع الفقير، ظناً منه أن الفقير لا يظلم الغنـــي، فنزلـــت هذه الآية تحث على إقامة الشهادة على الوجه الـــصحيح، فـــإن الله أولـــى بـــالغني والفقير[1].

ومعنى الآية الكريمة أن يقيم المسلم الشاهدة لله تعالى، فإن كان المشهود له فقيراً فالله أولى به، وإن كان المشهود عليه غنياً فالله أولى به أيضاً، وما على المـــسلم إلا أن يقيم الشهادة لله تعالى حتى ولو كانت تلك الشهادة في حق واحد من أقاربـــه، ولا يجوز له أن يميل إلى جانب الفقير ضد الغني، فالشهادة يتوجـــب فيهـــا أن تقـــام لله سبحانه وتعالى[2].

وإعراب هذه الآية يتمثل بأن "إنْ: شرطية جازمة، ويكن: فعل ناقص مـــضارع مجزوم، واسمه محذوف تقديره "المشهود له"، وغنياً: خبر "يكـــن" منـــصوب، وأو: حرف عطف، وفقيراً: اسم معطوف منصوب[3].

ومن خلال النظرة الأولى في الآية القرآنية الكريمة نجد أن اسم "كان" محـــذوف، والواقع أن اسم كان قد حُذِف من أجل العناية بالخبر، فإن الغاية من المعنى الـــوارد في الآية الكريمة أن يبين الله تعالى للمؤمنين أن عليهم أن يقيموا الشهادة لله تعـــالى، ولو كانت تلك الشهادة على الأقربين من الناس، ومهما كانت حال المشهود له، سواء أكان غنياً أو فقيراً.

لقد أفادت "إنْ" في نص الآية الكريمة الشرط، وبالإضافة إلى الشرط فإنها أفادت الزمن المستقبل، فدلالتها نقلت دلالة الفعل الذي دخلت عليه "يكن" من الحـــال إلـــى

---

[1]. الطبري. جامع البيان، ج: 9، ص: 303.

[2]. الزجاج. معاني القرآن وإعرابه، ج: 2، ص: 118، والسمرقندي. بحر العلوم، ج: 1، ص: 346، والثعلبي. الكشف والبيان، ج: 2، ص: 400، والماوردي. النكـــت والعيـــون، ج: 1، ص: 535.

[3]. الدرويش. إعراب القرآن وبيانه، ج: 2، ص: 348.

الاستقبال، ليدل على معنى المشهود له، أما "يكن" فإنها جاءت هاهنا ناقصة وهو أمر واضح من خلال ما ذُكر من كلام المفسرين أولاً، ومن خلال طبيعة التركيب ثانياً.

ولكن لماذا لم تأتِ "يكن" ماضية، أي أن يكون نص الآية الكريمة: إن كان غنياً أو فقيراً؟

لقد جاء الفعل "يكن" للدلالة على الاستقبال، وهي الدلالة التي لا يحملها الفعل "كان" الماضي إذا ما كان موجوداً، وهذه الدلالة على الاستقبال تتناسب مع فعل الأمر الداخل في بنية الكلام، والوارد في صدر الآية الكريمة، وهو قوله: "أقيموا الشهادة لله"، فهذا الفعل يدل على أن إقامة الشهادة لم تحصل بعد، وبالتالي فإن الحدث حدث استقبالي، فحسُن أن يكون الفعل "يكن" وليس "كان" من أجل التناسب العام في نص الآية القرآنية الكريمة.

وفيما يأتي ننتقل إلى آية قرآنية أخرى، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا"[1].

والجملة التي نحن في صدد الحديث عنها في الآية الكريمة هي قوله: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون"، حيث تركبت الجملة مما يلي:

إنْ + تكون + مسندة إلى ضمير الرفع المتصل + خبر جملة فعلية.

ومعنى هذا الجزء من الآية الكريمة أن المؤمنين بما يصيبهم من أذى من المشركين في القتال في سبيل الله كما أنهم يتألمون بالجراح والقتال، فإن المشركين أيضاً يتألمون من الجراح والقتال، غير أن هذه الجراح تكون في الحياة الدنيا، أما الآخرة فإن المؤمنين يرجون الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى على ما أبلوا في سبيل الله من قتال، وعلى تلك الجراح التي آلمتهم في سبيل الله، في حين أن المشركين لا أجر لهم يرجونه من الله سبحانه وتعالى، وليس لهم ثواب على ما يقاتلون، بل إنهم يحاسبون على قتالهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمين[2].

---

[1]. سورة النساء، آية: 104.

[2]. الطبري. جامع البيان، ج: 9، ص: 170 ــ 171.

فإن "القوم شاركوكم فى إحساس الألم، ولكن خالفوكم فى شهود القلب، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون، فلا ينبغى أن تستأخروا عنهم فى الجد والجهد"[1].

لقد ألزم الله تعالى المؤمنين بقوله: إن تكونوا تألمون... الحجة، أي: أليس ما تكابدون من ألم الجرح والقتل مختصاً بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه ويتشجعون، فمالكم لا تصبرون مثل صبرهم، مع أنكم أولى منهم بالصبر لأنكم تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم في الآخرة[2].

ولقد دخلت "إنْ" على الفعل المضارع "تكونوا" وهو فعل مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه حذف النون من آخره، والواو اسم "تكون" والجملة الفعلية "تألمون" خبر لـ "تكونوا" وبالتالي فإن دخول "إنْ" الشرطية أفاد الاستقبال، إضافة إلى أن الفعل "تكون" نفسه يتضمن معنى الاستقبال، وهو دليل على استمرار القتال والألم بين المؤمنين والمشركين، كذلك فإن الخبر فعل مضارع، وهو ايضاً دليل على استمرار الألم بينهم، فيظهر لنا من خلال هذه الأمور أن ثلاثة من تركيبات الجملة أفادت معنى الاستمرار والديمومة في الحدث، وهي:

1 ــ إنْ الشرطية.

2 ــ الفعل المضارع "تكونوا".

3 ــ الفعل المضارع في الخبر "تألمون".

وهذا فيه زيادة في التوكيد على استمرارية القتال بين المؤمنين والمشركين، واستمرارية الألم من كل منهم.

---

1. القشيري. لطائف الإشارات، ج: 1، ص: 359.

2. الزمخشري. الكشاف، ج: 1، ص: 561، والرازي. مفاتيح الغيب، ج: 11، ص: 210، والقرطبي. الجامع لأحكام القرآن، ج: 5، ص: 373، والبيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج: 2، ص: 95.

ولكن ما نشير إليه هو لماذا لم تأتِ الآية الكريمة على هذا النحـــو: إن تـــألموا فإنهم يألمون كما تألمون، فالمعنى متقارب بين النصين؟ ويظهر أن "تكونوا" لم تـــؤدِّ غرضاً كبيراً في المعنى؟

لو أتت الجملة على النحو المذكور سابقاً فإنها تكون بمعنى الاستقبال المحـــض، وتفيد الألم المستقبل، في حين أن وجود "تكونوا" أفادنا الألم الحالي والقـــادم، حتـــى كذلك الألم الماضي، فالفعل "تكونوا" جعل من الزمن مشتركاً في المعنى بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وفي نهاية حديثنا في هذا الفصل عن "إن كان" بتصريفيها الماضي والمـــضارع، فإننا لم نجد تراكيب مثل:

1ـ إنْ تكن: كان المسندة إلى ضمير الغائبة.

2ـ إن تكونا: كان المسندة إلى ضمير الاثنين للغائبتين، أو للمخاطبَيْن.

3ـ إن يكونا: كان المسندة إلى ضمير الاثنين الغائبَيْنِ.

الخاتمة

وبعد أن انتهينا من عرض فصول هذه الدراسة على الوجه الذي رأيناه ســـابقاً، فإنه من تمام العمل أن نذكر بعضاً من النتائج، وهي على النحو الآتي:

أولاً: لقد ذكر العلماء والنحويون أسباباً متعددة لتسمية باب "كان وأخواتها" على هذا النحو، بحيث تكون فيه "كان" أماً للباب، فذكروا كثيراً من الأسباب التي دفعتهم لجعل "كان" أماً للباب، غير أننا نرى أن أهم سبب في ذلك أن "كان" أكثر مـــن غيرها من الأفعال الناقصة استعمالاً في حياتنا اليومية، وفي النصوص اللغوية التي بين أيدينا، والقرآن الكريم نص منها.

ثانياً: إذا ما دخل النفي على "كان" فإن المعني بالنفي يكون حاضراً موجــوداً، فـــي حين أننا حين ننفي "يكون" المضارعة فإن المعنيّ بالحــدث يكــون ميتـــاً، أو غائباً.

ثالثاً: حين يأتي خبر "كان" الماضية جملة فعلية فعلها مضارع، فإن المعنى يدل على أن الحدث كان مستمراً في الزمن الماضي.

رابعاً: لقد وردت "كان" الناقصة في القرآن الكريم جنباً إلى جنب مع "كان" التامـــة، ولم يقتصر الحديث فقط عن "كان" الناقصة.

خامساً: ترد "كان" في نصوص القرآن الكريم لتفيد معنى العموم والشمول، وخاصـــة كان ورودها في هذا المعنى مرتبطاً بالحديث عن عمـــوم وشـــمول علـــم الله تعالى، وشمول ومطلقية قدرته.

سادساً: ترد "كان" الماضية في كتاب الله تعالى مسبوقة بـــ لو" ويكون اسمها ضميراً مستتراً في مواضع قليلة جداً في كتاب الله تعالى، وهذه المواضع يكون المعنى فيها مرتبطاً بالأمور العقائدية.

سابعاً: تأتي "لو كان" في القرآن الكريم في كثير من الأحيان مخبـــراً عنهـــا بفعـــل مضارع، ويكون الحديث عن بعض الذنوب في الدنيا، وهو فيـــه شـــيء مـــن الدليل على إصرار الكافرين على تلك الذنوب في حياتهم الدنيا.

ثامناً: لم تأتِ "إنْ كان" في القرآن الكريم مسندة إلى ضمير الاثنين أو الاثنتين، سواء منها الغائبَيْن أم المخاطبَيْن.

تاسعاً: لم ترد "إن يكن" في القرآن الكريم مسندة إلى ضمير الغائبة، أو الغائبتين، أو الغائبَيْن، أو المخاطبَيْنِ.

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا الأجر والثواب على هذه الدراسـة، إذ إنها تختص بكتابه العزيز، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

الأخفش، أبو الحسن المجاشعي (1990م). **معاني القرآن**، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة ــ مصر، الطبعة الأولى.

الأزهري، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد (2000م). **شرح التصريح على التوضيح، أو التوضيح بمضمون التصريح في النحو**، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (1975 م). **شرح شافية ابن الحاجب**، تحقيق: محمد نور الحسن وزملائه، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان.

الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن(د. ت). **شرح الكافية في النحو**، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان.

الأشموني، أبو الحسن علي بن محمد بن عيسى (1998م). **شرح الأشموني على ألفية ابن مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله (1415هـ). **روح المعاني في في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله (1422هـ). **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد (1420هـ). **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي (1418هـ). **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله (1423هـ). **تفسير التستري**، جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم (2000م). **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: أبو محمد ابن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الجرجاني، علي بن محمد الشريف (1985 م). **كتاب التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت ــ لبنان.

ابن جني، أبو الفتح عثمان (د.ت). **اللمع في العربية**، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية، الكويت.

الجوجري، محمد بن عبد المنعم بن محمد (2004م). **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ــ السعودية، الطبعة الأولى.

الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (1422هـ). **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (1419هـ). **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة.

ابن الحاجب، عثمان بن عمر (1949 م) .**الكافية في النحو**، (ضمن كتاب مجموع مهمات المتون) مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بيروت ــ لبنان، الطبعة الرابعة.

حسن، عباس (د.ت). **النحو الوافي**، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي (1420هـ). **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ــ لبنان.

درويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى (1415هـ). **إعراب القرآن وبيانه**، دار الإرشاد للشئون الجامعية، حمص ــ سوريا، ودار اليمامة للنشر والتوزيع، دمشق سوريا، وبيروت ــ لبنان، ودار ابن كثير، دمشق ــ سوريا، وبيروت لبنان، الطبعة الرابعة.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي (1420هـ). **مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة.

الرصاع، أبو عبد الله محمد بن قاسم (1350هـ). **الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، شرح حدود ابن عرفة للرصاع**، المكتبة العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري (1988م). **معاني القرآن وإعرابه**، عالم الكتب، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (1985م). **كتاب اللامات**، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر، دمشق ــ سوريا، الطبعة الثانية.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (1407هـ). **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت ــ لبنان، الطبعة الثالثة.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (1993م). **المفصل في صنعة الإعراب**، تحقيق: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

ابن السراج، أبو بكر محمد بن السري بن سهل (د.ت). **الأصول في النحو**، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد (د.ت). **بحر العلوم**.

السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي (1997م). **تفسير القرآن**، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض ــ السعودية، الطبعة الأولى.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1977 م). **كتاب سيبويه**، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ــ مصر.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (د.ت). **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، القاهرة ـ مصر.

ابن الصائغ، محمد بن حسن بن سباع الجذامي (2004م). **اللمحة في شرح الملحة**، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ـ السعودية، الطبعة الأولى.

الصبان، أبو العرفان محمد بن علي (1997م). **حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.

ابن أبي طالب، أبو محمد مكي (2008م). **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**، تحقيق: مجموعة رسائل بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، بإشراف: الشاهد البوشيخي، نشر مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة ـ الإمارات، الطبعة الأولى.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (2000م). **جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.**

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (1422هـ). **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.

ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن الهمداني المصري (1980م). **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، ودار مصر للطباعة، القاهرة ـ مصر، الطبعة العشرون.

العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (1992م). **مسائل خلافية في النحو**، تحقيق: محمد خير الحلواني، مطبعة الشرق العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى.

العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (د.ت). **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة ــ مصر.

الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (د.ت). **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان.

الغلاييني، مصطفى محمد (1993م). **جامع الدروس العربية**، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت ــ لبنان، الطبعة الثامنة والعشرون.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد(1972 م). **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار، القاهرة ــ مصر.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن (1995م). **الجمل في النحو**، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة الخامسة.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (د.ت). **لطائف الإشارات**، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ــ مصر، الطبعة الثالثة.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (1999م). **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

الكرماني، أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر برهان الدين (د.ت). **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، دار القبلة، جدة ــ السعودية، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت ــ لبنان.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى (د.ت). **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان.

ابن المؤدب، القاسم بن محمد بن سعيد(1987م). **دقائق التصريف**، تحقيق: أحمد ناجي القيسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ــ العراق.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (د.ت). **النكت والعيون**، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (د.ت). **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت ــ لبنان.

المرادي، أبو محمد الحسن بن قاسم بن عبد الله (1992م). **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

مسلم، أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري (د.ت). **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان.

النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (1409هــ). **معاني القرآن**، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ــ السعودية، الطبعة الأولى.

النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (1421هــ). **إعراب القرآن**، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (1998م). **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو، دار الكلم الطيب، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

النعماني، أبو حفص عمر بن علي (1998م). **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، الطبعة الأولى.

ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد (1383هــ). **شرح قطر الندى وبل الصدى**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ــ مصر، الطبعة الحادية عشرة.

ابن هشام، أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد (د.ت). **أوضح المسالك إلى ألفيـــة ابن مالك**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للنشر والتوزيـــع، بيروت ــ لبنان.

ابن الوراق، أبو الحسن محمد بن عبد الله بن العباس (1999م). **علل النحو**، تحقيق: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض ــ السعودية، الطبعـــة الأولى.

المعلومات الشخصية

الاسم: أحمد عبدالله الصايل

الكلية: الآداب

التخصص: اللغة العربية

السنة: 2012

هاتف رقم: 00966591665666